

مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon – Tripoli: Branche P.O. Box Abou Samra - www.jilrc.com - social@journals.jilrc.com



ISSN 2311-5181 DOI Prefix:10.33685/1316 العام العاشر - العدد 95 - مارس 2023

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة عالميا تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

هيئة التحرير:

- أ.د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر)
أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)
د. حنان شعشوع محمد الشّبري (جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية)
د. صونيا عيواج (جامعة باتنة 1، الجزائر)
د. يزيد شويعل (جامعة المدية، الجزائر)
د. يوسف جاب الله (جامعة المدية، الجزائر)

التدقيق اللغوي:

- د. عبلة حسن (جامعة لينكولن، نبراسكا، الولايات المتحدة الأمريكية)
د. فاتن عدّي (جامعة قسنطينة، الجزائر)

رئيس اللجنة العلمية: أ.د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)

اللجنة العلمية:

- أ.د. أبكر عبد البنات آدم (جامعة بحري، السودان)
أ.د. بالموشي عبد الرزاق (جامعة الوادي، الجزائر)
د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر)
د. زين العابدين عبد الحفيظ (جامعة خميس مليانة، الجزائر)
د.عبد الله ملوكي (جامعة سطيف 2، الجزائر)
د.علة المختار (جامعة الجلفة، الجزائر)
د.محمد البشير رازقي (كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس)
د. نجوى نايف عبد النبي شكوكاني (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
د.هاني إسماعيل رمضان (جامعة جبرسون، تركيا)

أعضاء اللجنة التحكيمية الاستشارية لهذا العدد:

- أ.د. صالح نهبراهي (جامعة واسط، العراق).
د. شلّالي لخضر (المركز الجامعي آفلو، الأغواط، الجزائر).
د. إبراهيم إسماعيل عبده محمد (جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية).
د. إخلاص محمد عبد الرحمن (جامعة الجزيرة، السودان).
د. أسماء سالم علي عربي (الجامعة الأسمرية، ليبيا).
د. اليسع حسن أحمد (جامعة طرابلس، ليبيا).
د. يزيد شويعل (جامعة المدية، الجزائر).
د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر).
د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون).
د. لطيف نجاح شهيد القصاب الفتلاوي (جامعة كربلاء، العراق).

شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة، أو مؤتمر في الوقت نفسه، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
 - عنوان البحث باللغة العربية والإنجليزية.
 - اسم الباحث ودرجته العلميّة، والجامعة التي ينتمي إليها، باللغة العربية والإنجليزية.
 - البريد الإلكتروني للباحث.
 - ملخّص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12، باللغة العربية والإنجليزية.
 - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
 - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن ، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
 - اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
 - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة:

social@journals.jilrc.com

الفهرس

الصفحة

6

- 7 • الافتتاحية
- 9 • الجماعات الترابية ودينامية المشهد الحضري بإقليم سيدي قاسم:- قراءة سوسيو مجالية عامة- إسماعيل الراجي/ جامعة ابن طفيل- القنيطرة، المغرب
- 31 • جودة التعليم العالي في ظل التحول الرقمي: الفرص والإمكانيات، عمر شهي/ أكاديمية الرباط، سلا- القنيطرة، المغرب
- 57 • الظواهر النفسية والاجتماعية السلبية المؤثرة على النشاط العقلي " الخرافة والأسطورة نموذجاً" أبكر عبد البنات آدم/جامعة بحري، السودان.
- 87 • التسامح الغربي وانعكاساته على الآخر: الإسلاموفوبيا بفرنسا أنموذجاً، سليمان عبد الجليل/جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب.
- 107 • The Impacts of Misleading Media:A briefSurvey of Television disinformation, Hamza Ait El Housseine, Cadi Ayyad University, Marrakech, Morocco.

الافتتاحية

7

الحمد لله رب العالمين الذي أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، و اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

يسعدنا أن نضع بين أياديكم أعزاءنا القراء الكرام العدد الخامس والتسعين (95) من مجلة "جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية"، والذي احتوى على قالب من المقالات المتنوعة في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي تعالج بعض المشكلات الواقعية في مجتمعاتنا واقترح الحلول المناسبة لها. نسأل الله أن تحقق المجلة أهدافها المناطة بها، كما نشكر كل القائمين عليها، وفقنا الله لما يحبه ويرضاه.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل،،،

رئيس التحرير / د. جمال بلكاي

**تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز
© جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي**

الجماعات الترابية ودينامية المشهد الحضري بإقليم سيدي قاسم:- قراءة سوسيو مجالية عامة-
Local authorities and the dynamics of the urban landscape in the province of Sidi Kacem
:sociological reading of a general community

الباحث إسماعيل الراحي/كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة ابن طفيل- القنيطرة، المغرب
ISMAIL RAJI, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco

Abstract:

Through this study, we aim to present a descriptive study on the territorial collectivities that make up the region of Sidi Kacem, which is regionally affiliated with the Rabat-Salé-Kenitra region, through the quality of local authorities, based on the analysis of the monograph of the province of Sidi Kacem, the statistics of the center of residence at the territorial level of a region, based on the results of the population and housing census and the administrative classification in force on the territory of the province of Sidi Kacem. This study attempts to provide quantitative and qualitative data on the territorial area of a region within its region, as part of a sociological reading of the territorial landscape in the province of Sidi Kacem, in the light of the paradoxes of the evolution of the urban landscape at regional and regional levels. The Moroccan and regional territorial area is experiencing a steady growth in urbanization dynamics, while in the province of Sidi Kacem, there is an almost special case related to the urban dynamics of the region, represented by the slow pace of territorial transitions towards urbanization, as well as the rise of urban centers that have stagnated for decades on the territory of the province of Sidi Kacem. It goes without saying that through this study, we will try to present a general socio-community reading through the variable of the number and quality of local authorities, and the place of residence of the population among the territorial collectivities classified as rural or urban communes.

Keywords: development, local authorities, population, rural, urban, deprivation of Sidi Kacem, Jorf El Malha.

ملخص:

نتوخى من خلال هذه الدراسة تقديم دراسة وصفية عن الجماعات الترابية المكونة لإقليم سيدي قاسم، التابع جهويا لجهة الرباط سلا القنيطرة، من خلال نوعية الجماعات الترابية، بالاعتماد على تحليل مونوغرافية إقليم سيدي قاسم، إحصائيات وسط الإقامة على الصعيد الترابي لإقليم، بالاعتماد على نتائج الإحصاء للسكان والسكنى والتصنيف الإداري المعمول به في تراب إقليم سيدي قاسم، إن هذه الدراسة تحاول أن تحين بعض المعطيات الكمية والنوعية عن المجال الترابي لإقليم ضمن الجهة المنتهي لها، في إطار قراءة سوسيو مجالية للمشهد الترابي بإقليم سيدي قاسم، على ضوء مفارقات اتجاه المشهد الحضري على الصعيد الجهوي والإقليمي، إذ يعرف المجال الترابي المغربي والجهوي نموا مطردا لديناميات التحضر، بينما في إقليم سيدي قاسم هناك حالة شبه خاصة تتعلق بديناميات الحضرية بالإقليم تتمثل في بطئ وثيرة التحولات الترابية نحو الحضرية، وكذا صعود المراكز الحضرية التي تراوح مكانها منذ عقود في تراب إقليم سيدي قاسم.

الكلمات المفتاحية: التنمية، الجماعة الترابية، عدد السكان، عدد الاسر، وسط قروي، وسط حضري،

إقليم سيدي قاسم، جرف الملحة.

مقدمة :

يعد سؤال واقع التنمية الترابية ومشهد وثيرة نمو المراكز الحضرية بالأقاليم الترابية المغربية، أحد أهم الأسئلة التي تلقي بظلالها على مجموعة من الأقاليم الترابية التي سجلت بها مجموعة من المؤشرات الدالة على انحصار المشهد التنموي المحلي، ومنه إشكالية تأهيل المراكز السكانية لما يستجيب لسيرورة التحضر في الإقليم والجهة، فهذا إقليم سيدي قاسم، من الأقاليم الترابية المتواجد على تخوم حدود جهة الرباط سلا القنيطرة يعد من الأقاليم التي تحسب من الجماعات الترابية (الجماعات الترابية هي العمالات والأقاليم والجهة)، التي يطغى عليها المشهد القروي؛ مجاليا واقتصاديا وترابيا برغم من عملية التحولات الديمغرافية التي تمت عقب العقود المنفرطة، فحسب المؤشرات الترابية والإدارية المعمول بها على صعيد عمالة إقليم سيدي قاسم، يتكون

الجسم الترابي للإقليم من خمس جماعات حضرية، وأربعة وعشرون جماعة قروية (مع المراكز القروية الناشئة)، بمجموع عدد سكان بلغ حسب نتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى لعام 2014⁽¹⁾ ما مجموعه 522070 نسمة، موزعة على نسبة 32.262% تقيم بالوسط الحضري، في حين ما نسبته 67.74% من مجموع ساكنة الإقليم تقيم في الأوساط القروية، هذه المعادلة السكانية والمجالية والترابية ترخي بظلالها على قضايا التنمية الترابية في الإقليم؛ لا سيما أن مجموعة من ساكنة هذا الإقليم ما تزال تعاني من غياب بعض الخدمات الأساسية، إلى حد الغياب التام، لخدمة كالماء الشروب، وطرق فك العزلة والبنية الأساسية (طرق والمسالك)، نهيك عن صعوبة الولوج لخدمات الصحة الأولية ونحوها من خدمات القرب، ومن الجدير بالذكر أن إقليم سيدي قاسم من الأقاليم الترابية التي تتوفر على مجموعة من المؤهلات والمعطيات المجالية والطبيعية النوعية التي كانت عليها أن تساهم في جعل المنطقة- الإقليم أكثر نشاطا وتنمية وتوسعا حضريا، لكن يبدو أن التحديات التنموية كانت عائقا أمام تحقيق طفرة تنموية تنعكس على الإنسان والمجال بالشكل الإيجابي، وتحقق ما يمكن تحقيقه من تقدم وازدهار يساهم في تحسين ما يمكن تحسينه من وظائف مجالية، تعكس بالشكل الإيجابي على الفرد والمجتمع من خلال الاستفادة من ارتفاع المجال الترابي لمعادلة تنسجم مع قوة الطبيعية، ويصبح الإقليم من بين الأقاليم التي تعد الأكثر جذبا، ما يعني توسيع الشبكة الحضرية عن طريق الاستثمار في المجالات الترابية المؤهلة، ما يعني توسيع الاستفادة من دينامية المشهد الحضري التي تلازمها طفرة اقتصادية وسكانية يستفيد من المجال المؤهل والصاعد حضريا.

في إقليم سيدي قاسم تقل الدراسات والأبحاث التي تتناول هذا الموضوع، وعلى ضوء هذا وما سبق سنحاول أن نقوم بتقديم قراءة سوسيو مجالية، وصفية للمجال الترابي لإقليم سيدي قاسم، مركزين على تحليل النتائج الإحصائية الديمغرافية واسقاطاتها المستقبلية (عدد السكان، عدد الأسر)، وحالة السكن والإقامة، كما سنقوم بالإحالة على حالة جماعة ترابية تشكل قفزة نوعية في عملية نمو المراكز الحضرية بإقليم سيدي قاسم حالة جرف الملحة، تعبر عن طفرة نوعية وكمية في المجال الترابي للإقليم سيدي قاسم من حيث نمو المراكز الحضرية الصاعدة.

الغاية من الدراسة:

نتوخى من هذه الدراسة وصف شبكة الجماعات الترابية المشكلة لإقليم سيدي قاسم، ورصد مشهد دينامية الحضرية ونمو المراكز الصاعدة بالإقليم من خلال الوقوف على حالة جماعة جرف الملحة، وقراءة تحليلية للواقع التنموي الذي عليه بعض الجماعات الترابية بالإقليم، وكل ذلك من شأنه أن يقدم لنا قراءة سوسيو مجالية وصورة جزئية عن دينامية المشهد الترابي والمجالى وواقع التحولات الاجتماعية بإقليم سيدي قاسم الذي يصنف من مجموع شبكة الأقاليم المغربية التي يهيمن على ترابها المجال الترابي القروي.

الإشكالية والفرضيات:

تتبلور الإشكالية المؤطرة لهذه الورقة البحثية والتي نسعى من خلالها؛ لوصف وتحليل المشهد الترابي بإقليم سيدي قاسم بناء على ضوء متغير دينامية المشهد الترابي القروي والحضري بالإقليم، وانعكاس هذه القضية على المشهد التنموي ككل، على أساس السؤال المركزي الآتي: إلى أين مضت وتمضي دينامية المشهد الترابي على صعيد إقليم سيدي قاسم؟ وبخصوص هذا الاشكال، نطرح نفترض، أن دينامية المشهد الترابي على صعيد إقليم سيدي قاسم قد احتفظت على البنية الترابية نفسها التي يطغى عليها المجال الترابي القروي، وحاليا تمضي نحو توسيع نطاقات الشبكات الحضرية من خلال الارتقاء وتأهيل التجمعات السكانية بالإقليم؛ ما يعني ذلك التحول من المجال الترابي القروي نحو المجال الترابي الحضري.

المنهج المعتمد في الدراسة وأدواتها

في متن هذه الدراسة سنعتمد على مقارنة منهجية تجمع بين منهجين: المنهج التاريخي، المنهج الوصفي، وذلك سيمكننا من قراءة وتحليل المعطيات السوسيو تاريخية والمجالية والإدارية المتعلقة بإقليم سيدي قاسم، من خلال الاستعانة بالعمل البيبليوغرافي المتعلق بموضوع الدراسة، سواء في الجانب النظري، أو الميداني، وذلك من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع التي تتناول قضية البحث التي هي قضية التحولات المجالية والاجتماعية والترابية، والمسألة الحضرية، لاسيما أن هذه القضية تتقاطع فيها مجموعة من الحقول الأكاديمية، كحقل علم الاجتماع والجغرافية، والتاريخ... إلخ، وهذا ما يستوجب النظر إلى بعض الدراسات

السابقة في الموضوع، لا سيما تلك التي تتقاطع مع موضوع البحث؛ والاطلاع على المعطيات الرسمية المتعلقة بالإحصاء، خاصة نتائج إحصاء المندوبية السامية للتخطيط: 1994، 2004، 2014، وإسقاطات الإحصائيات الاستشرافي، هذا من جهة ومن جهة أخرى سنقوم بقراءة في مضمون مونوغرافية إقليم سيدي قاسم، وبعض مونوغرافية الجماعة الترابية المستشهد بها في متن هذه الدراسة، ولا يفوتنا اطلاع على بعض وثائق الجماعات الترابية كوثيقة برنامج عمل الجماعة والميزانية ونحوها من الوثائق، ولا ننسى الاستعانة بالمعينة الميدانية لبعض الجماعات التي من خلال معاينة بعض قضايا التنمية الترابية على صعيد بعض الجماعات بإقليم سيدي قاسم، علاوة على العمل الخرائطي.

مجال الدراسة

كما هو مصرح به من عنوان الدراسة، مجال الدراسة العام هو إقليم سيدي قاسم، التابع إلى جهة الرباط سلا القنيطرة، هذا الإقليم الذي عرف جملة من التحولات الترابية والإدارية خلال السنوات الماضية، أهمها إدراج إقليم سيدي قاسم ضمن جهة الرباط سلا القنيطرة خلال التقسيم الترابي 2015، بعدما كان إقليما تابعا لجهة الغرب شراردة بني احسن في التقسيم الجهوي السابق، وعقب التعديلات المتعلقة بإحداث العمالات والاقاليم، تم خلال سنة 2009، بإدراج جماعة ترابية من إقليم سيدي قاسم لإقليم وزان الجديد، ومن الخصائص والميزات الاستراتيجية لإقليم سيدي قاسم هناك جملة من المعطيات المجالية، حيث المعطى الطبيعية المتعلق بطبيعة التضاريس والتربة والماء هبة للإقليم سيدي قاسم الذي يعد مجاله الطبيعي خصب للنشاط الفلاحي، كما يتواجد الإقليم في وسط محيط من المدن الإقليمية والجهوية التي تبعد عن عاصمة إقليم سيدي- مدينة سيدي قاسم- حوالي ما بين 60 و100 كلم كمدينة القنيطرة، مدينة العريش، مدينة فاس، مدينة مكناس، مدينة الشفشاون، مدينة وزان... إلخ، وهذا ما يجعل الإقليم يستفيد من البنية التحتية وشبكة الطرق المحورية الوطنية والجهوية وشبكة السكة الحديدية... إلخ.

ومن الجدير بالإشارة أن إقليم سيدي قاسم يندرج ضمن منطقة الغرب التي تعد من المجالات الترابية التاريخية التي تعرف أنثروبولوجيا وتاريخيا بساكنة الغرب التي تتنوع فيها المكونات القبلية.

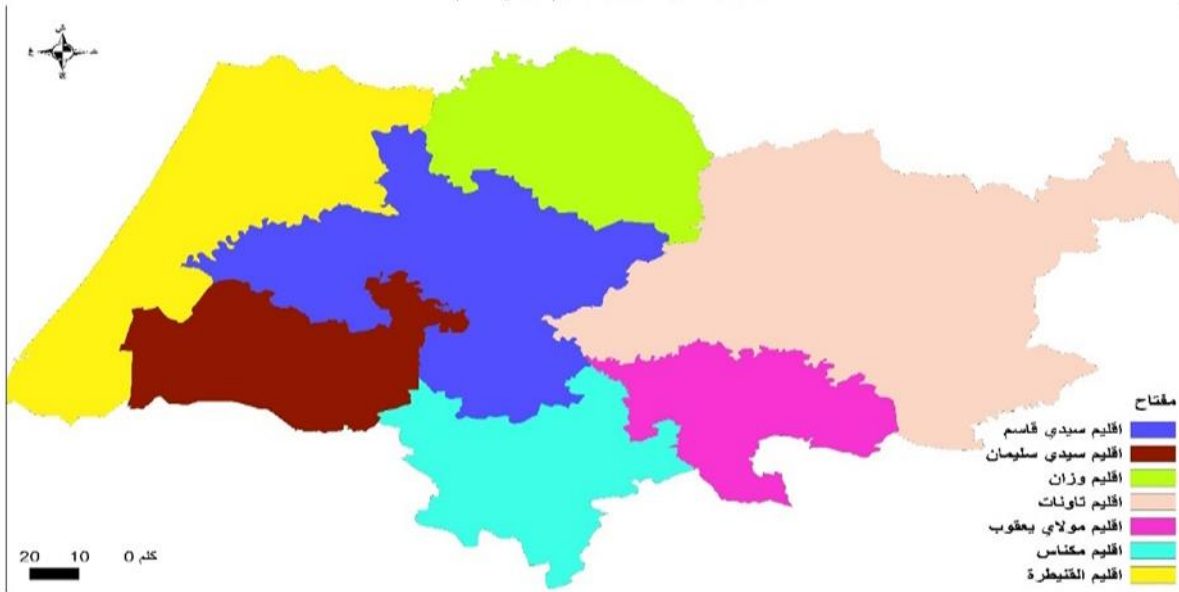
أولاً: المجال والإنسان بإقليم سيدي قاسم

1- موقع الإقليم

يقع إقليم سيدي قاسم ضمن جهة الرباط سلا القنيطرة، وحسب خريطة الجهة، يتموقع الإقليم ضمن الشمال الشرقي للجهة، ويمتد ترابه إلى حدود وسط الجهة، وعلى مستوى الوطني يقع الإقليم ضمن الشمال الغربي للمغرب، وكما هو ملاحظ من خلال الخريطة يتشارك إقليم سيدي قاسم حدوداً داخلية مع بعض أقاليم من الجهة نفسها (القنيطرة، سيدي سليمان)، ومن جهة ثانية مع أقاليم من جهات أخرى، كإقليم مكناس ومولاي يعقوب بالنسبة لجهة فاس مكناس، وإقليم وزان بالنسبة لجهة طنجة تطوان؛ كما هو واضح في الخريطة أسفله.

خريطة 01: توطين إقليم سيدي قاسم

توطين الحدود الترابية لإقليم سيدي قاسم



إعداد الطالب الباحث، المصدر التقسيم الترابي 2015

إعداد الباحث، المصدر التقسيم الترابي 2015

2- المناخ والتضاريس والماء

2-1 المناخ

يطغى على مناخ إقليم سيدي قاسم، مناخ متوسطي "يتميز بتناوب فترتين فصليتين: الأولى تمتد ما بين شهر أكتوبر وأبريل، وهي فترة تعرف بكثرة رطوبتها حيث لا يتعدى متوسط درجات الحرارة خلالها 16 درجة، بينما الفترة الثانية الممتدة من ماي إلى شتنبر، فيغلب عليها الجفاف وشدة الحرارة، إذ يصل متوسط الحرارة خلالها 24.7 درجة"⁽¹⁾، ومن الجدير بالذكر خلال السنوات الماضية الأخيرة، عقب التقلبات المناخية الناجمة عن التغير المناخي على صعيد كوكب الأرض، يلاحظ حسب نتائج بعض الدراسات الجغرافية⁽²⁾، أن التقلبات المناخية الأخيرة أدت إلى انعكاسات سلبية على النشاط الفلاحي بإقليم سيدي قاسم، حالة بعض الجماعات الترابية التي تنشط في القطاع الزراعي البوري الذي يعتمد على التساقطات الموسمية، أي الزراعة البورية ونحوه.

2-2 المساحة والتضاريس

تشكل تضاريس إقليم سيدي قاسم ونوعية تربتها أحد أهم المعطيات النوعية في المجال الترابي لإقليم، فيلاحظ حسب الوصف الجغرافي لتضاريس المنطقة هناك أن التضاريس تتسم بالتنوع الملحوظ⁽³⁾؛ فهناك السهول الشاسعة، التي هي امتداد للمجال السهلي المسماة سهل الغرب الذي يمتد على المجال الترابي لإقليم سيدي قاسم، الإقليم الذي تقدر مساحته بحوالي 4060 كلم²، تمتد في إقليم سيدي قاسم، سلسلة من التلال متباينة الارتفاع ونوعية التربة؛ مثلاً في الشرق والجنوب والشمال المحاذي لمقدمة تلال الريف والشرق، لكن المشهد السائد على التضاريس في المنطقة هو مشهد السهول، التي هي امتداد لسهل الغرب الذي يعد أهم معطى

1 المندوبية السامية للتخطيط، مونوغرافية إقليم سيدي قاسم-2016، المديرية الجهوية لجهة الرباط سلا القنيطرة، ص 20.
2 شيكر مصطفى، التقلبات المناخية وانعكاساتها على النشاط الفلاحي بجماعة احد كورت وضاحتها، من خلال تمثلات الفلاحين، المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات، المجلد 2، العدد 15، الأردن 2021، ص 76-90.
3 المندوبية السامية للتخطيط، مونوغرافية إقليم سيدي قاسم-2016، المديرية الجهوية لجهة الرباط سلا القنيطرة، ص 20.

مجالى فى منطقة الغرب؛ نظرا لتوفره على معطيات طبيعية حيوية، كالمعطى المائى والتربة وسهولة الولوجية...إلخ.

2-3 الموارد المائية

16

يعد الماء من المعطيات المجالية المهمة، وعنصر من عناصر الأساسية فى تشييد العمران البشرى على الامتداد الجغرافى للمجتمعات تاريخيا وراهنيا، ومن المفارقات المتعلقة بالماء أنه معطى مجالى محدد سلفا، فإما أن يكون المجال الترابى يتوفر على هذا المعطى أو يكون معلقا بوضعيات خاصة، ومنه وضعية القلة والندرة، نظرا للعوامل الطبيعية المرتبطة بالمناخ والجغرافية، أو مرتبطة بوضعيات جيوسياسية معقدة، إن الموارد المائية أهم متغير فى معادلة التنمية الفلاحة، والصناعية، حيث يملى حجم المياه بكافة أشكالها وألونها فى المجال نوع سياسة الإنتاج فى المجال، ومن عناصر القوة المجالية بإقليم سيدي قاسم، توفره على موارد مائية مهمة، أهمها اختراق مجموعة من الأودية لمجاله الترابى؛ كواد ورغة وسبو...إلخ، يستفيد المشهد الفلاحي بإقليم سيدي قاسم من هذه الثروة التى تعد أهم رأسمال طبيعى فى المنطقة، ونظرا لامتداد سهل الغرب فى تراب إقليم سيدي قاسم، يتوفر المجال الترابى لإقليم على فرشة مائية تعد الأهم، إذن من مشهد قوة المجال الترابى بإقليم سيدي قاسم، المعطى المائى، فبعد التساقطات المطرية الموسمية التى يسجلها الإقليم، يتوفر الإقليم على ثروة مائية جد مهمة من مصادر -واد سبو، وواد ورغة- والمياه الجوفية، فرشة سهل الغرب، تعد أهم فرشة مائية على صعيد التراب الوطنى، وتعد هذه الثروة كنز للاستثمار الفلاحي بشتى ألوانه، وعلى أساس هذه الموارد الطبيعية، سيكون النشاط الفلاحي هو عصب الاقتصاد بالإقليم عبر سيرورته التاريخية والاقتصادية، قصارى القول، يتوفر إقليم سيدي قاسم على معطيات طبيعية مهمة تعتبر هبة لهذا الإقليم الترابى الذى تنتهى مكوناته الطبيعية (الجغرافية والمناخية) إلى الوسط الطبيعى لمنطقة الغرب⁽¹⁾.

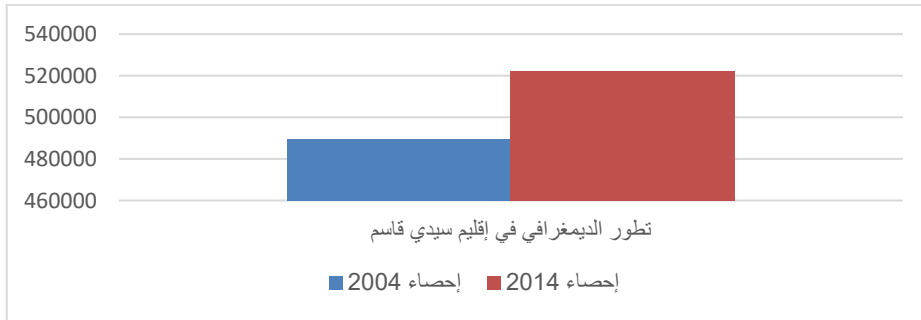
1 للمزيد حول الخصائص الطبيعية لمنطقة الغرب، ينظر: غازى عبد الخالق، معطيات طبيعية حول الوسط الطبيعى لمنطقة الغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، سلسلة ندوات ومنشورات رقم 3، المغرب 1991، ص 11-20.

3- الخصائص الديمغرافية والاقتصادية لإقليم سيدي قاسم

3-1 عدد السكان والأسر

تقدر الكثافة السكانية بإقليم سيدي قاسم بحوالي 166، في حين تقدر الكثافة الساكنة لجهة الرباط سلا القنيطرة بحوالي 255، ويقدر عدد سكان الإقليم ب 522070 نسمة⁽¹⁾، ويشكل عدد سكان إقليم سيدي قاسم ما نسبته 11.47% من مجموع نسبة عدد سكان الجهة، التي بلغت حوالي 4552585 نسمة، أما مجموع عدد الأسر بالإقليم، فقد بلغ عدد 99191 أسرة، ولقد جاءت نتائج الإحصاء بين الذكور والإناث متقاربة، حيث يرتفع عدد سكان الذكور عن الإناث في الإقليم 6268 نسمة، أي ما نسبته 0.60%. وتشكل نسبة السكان الإناث 49.40%، وبمقارنة نتائج إحصاء 2004 مع نتائج إحصاء 2014 نجد أن ساكنة إقليم سيدي قاسم عرفت تطورا ملحوظا، حيث زاد عدد الساكنة خلال عشر سنوات بحوالي 32848 نسمة، كانت هذه الزيادة أساسا في الأوساط الحضرية للإقليم حسب الإحصائيات.

مبيان 01: مقارنة عدد سكان إقليم سيدي قاسم خلال محطة الإحصائية 2004 و2014



إعداد الباحث، المصدر (RGPH2014)

3-2 النشاط سوسيو اقتصادي

بناء على إحصائيات المتعلقة بإقليم سيدي قاسم، سنقوم باستعراض بعض المؤشرات حول نسب النشاط والشغل في إقليم سيدي قاسم، ومقارنتها على صعيد الجهة، والتحولت التي عرفت بالمقارنة مع إحصاء 2004. تشير أولا الإحصاءات إلى أن المعدل الصافي للنشاط على مستوى إقليم بلغ سنة 2014 44.67%، بينما على مستوى الجهة بلغ المعدل الصافي للنشاط 49.73%، وقد تباين المعدل الصافي للنشاط عند الذكور والإناث، حيث لم يتجاوز المعدل الصافي للنشاط عند الإناث 11.31% (على مستوى الجهة 25.46%) بينما عند الذكور

1 نتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى 2014 (RGPH2014)

وصلت النسبة إلى 77.53% في الإقليم، وهي أقل على مستوى الجهة حيث لم يتجاوز 75%، أما فيما يخص معدل النشاط بين الوسط الحضري والقروي بالإقليم، فنجد المعدل الصافي للنشاط بالوسط القروي في حدود 44.72% (على مستوى الجهة أكثر من 48)، بينما المعدل الصافي للنشاط بالوسط الحضري في حدود: 44.58% (على مستوى الجهة تجاوز 50 بالمئة).

ثانيا: الجماعات الترابية بإقليم سيدي قاسم ومقارنة وسط الإقامة بين الوسط القروي والحضري

1- الجماعات الترابية بإقليم سيدي قاسم

1-1 تعريف الجماعات الترابية

يعرف دستور 2011 الجماعات الترابية في الفصل 135، على أنها " هي الجهات والعمالات والأقاليم والجماعات، ويشير الدستور إلى أن الجماعات الترابية أشخاص اعتبارية، خاضعة للقانون العام"، يتكون المجال الترابي المغربي من 12 جهة؛ تضم 1503 جماعة ترابية⁽¹⁾، منها 1282 جماعة تصنف قروية، في حين لا يتجاوز عدد الجماعات الترابية المصنفة حضرية 221 جماعة، الجماعات القروية يقيم فيها حوالي ثلاثة عشر مليون ونصف مليون نسمة، في حين يعيش تقريبا في الجماعات الترابية الحضرية حوالي عشرون مليون ونصف المليون نسمة⁽²⁾.

1-2 عدد الجماعات الترابية بإقليم سيدي قاسم ونوعيتها وخصائصها الديمغرافية والسكانية

يضم إقليم سيدي قاسم، ثلاثون جماعة ترابية، تتميز فيما بينها بين ثلاثة أنواع من الجماعات الترابية؛ الجماعات الترابية الحضرية، والجماعات الترابية القروية مع المراكز الحضرية، تتوزع الجماعات الترابية بإقليم سيدي قاسم على خمسة دوائر ترابية، وخمسة بلديات، وهي على المنوال الآتي كما يوضح الجدول:

1 للمزيد حول عدد الجماعات الترابية وتصنيفها ينظر اللامركزية في أرقام 2014-2015، إعداد وزارة الداخلية المديرية العامة للجماعات المحلية.

2 نتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى 2014 (RGPH2014)

جدول 01: الجماعات الترابية بإقليم سيدي قاسم

الكثافة السكانية	عدد الأسر	عدد السكان	اسم الجماعة الترابية	اسم الدائرة والبلديات
104	4836	24241	عين الدفالي	دائرة تلال الغرب
57.97	1383	7485	بني وال	
52.22	1386	7893	مولاي عبد القادر	
81.79	1371	7810	سيدي احمد بنعيسى	
134	2096	11814	سيدي اعمر الحاضي	
83.32	2578	14356	سيدي عزوز	
121	3113	17842	الحوافات	دائرة غرب بني مالك
165	4460	24805	انويرات	
169	4081	25075	صفصاف	
143	2489	13412	الخنيشات	دائرة ورغة
2230	2193	10295	الخنيشات المركز	
99.91	3878	20461	لمرابيح	
71.59	1988	11371	اولاد نوال	
115	1373	7737	سيدي امحمد الشلح	
113	2589	14764	توغيلت	

42.06	1282	7697	باب تيوكا	دائرة الشارقة
132	2047	11370	بير الطالب	
130	1949	10371	اشبانات	
78.41	1570	10239	سلفات	
73.78	1131	7068	ثكنة	
96.26	1729	10032	زكوة	
121	1630	8606	زيارة	
4655	1673	8000	مركز: زيارة	دائرة بهت
306	5068	32127	دار العسلوجي	
128	2569	16861	ارميلات	
246	4826	30199	سيدي الكامل	البلديات
1456	1298	6643	دار الكداري	
1042	1777	7819	احد كورت	
3409	5888	28671	جرف الملحة	
3853	7017	31434	مشرع بلقصييري	
2927	17923	75572	سيدي قاسم	

إعداد الباحث، المصدر: مونوغرافية إقليم سيدي قاسم وموقع المندوبية السامية

للتخطيط (RGPH2014)

2- المشهد الحضري من خلال متغير وسط الإقامة

2-1 نبذة عن نواة التمدن بإقليم سيدي قاسم

في النظام الترابي المغربي نميز بين الجماعات الترابية، من خلال الدراسات الإحصائية المعمول بها في دواليب المندوبية السامية للتخطيط بين مجالين للسكن والإقامة، فإما نجد وسط الإقامة مصنف وسط قروي أو وسط حضري، ومن الجدير بالإشارة هناك شبه غموض حول الفروق القروية والحضرية، خصوصا في مجالات العالم الثالث، حيث هناك نقاش حول تصنيف المجال في العلوم الاجتماعية؛ من بين الأسئلة التي يتم طرحها على التصنيف المجالي، ما الفروق المجالية بين القرية والمدينة؟ أو كما يعبر عنها محمد الجوهري الفروق الريفية الحضرية⁽¹⁾، كما هناك من يفضل استعمال التمدنية عوض كلمة التمدن؛ فالتمدنية هي "عبارة عن شبكة علاقات مكانية واجتماعية وفكرية، يوظفها الشخص أو مجموعة من الأشخاص في ممارسته الخاصة والعامية، تساعد على اندماجه في المحيط الحضري وتبلغ ذروة تبلور التمدنية في وسط المدينة ومركزها النابض بالحياة والمعاملات المتشعبة، وهي في آن واحد سلوك وتصور علاقات بين الأشخاص وقيم ديناميكية اجتماعية وثقافية، وهي كذلك تعرف تعبيرها الأقوى في المجال المتميز للمدينة، أي في مركزية حضرية تكيف تطور المدينة بأجمعها وتحدد علاقات السكان في بمختلف المؤسسات الحضرية"⁽²⁾ بينما التمدن "يعبر عن النمو الكمي والكيفي لل عمران الحضري"⁽³⁾، وعلى ضوء هذه الإشارة المتعلقة بالمسألة الحضرية، يؤكد عبد الرحمن المالكي القول حول تصورات علماء الاجتماع حول مفهوم التحضر أنه يعني بالأساس "هذه العمليات الاجتماعية التي وصلت مراحلها النهائية في الدول المتقدمة، والتي يمكن القول أن ما يسمى بالدول النامية قد انخرطت فيها تدريجا وبشكل حتمي"⁽⁴⁾، حيث تتحقق أربعة عمليات يقول المالكي: التحضر كعملية تنشئة اجتماعية؛

1 محمد الجوهري، "الفروق الريفية الحضرية" في: عالية حبيب وآخرون، علم الاجتماع الريفي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان 2011 ط2.

2 محمد الناصري، التمدنية وتطور المدن العربية الإسلامية، مجلة آفاق، العدد 58 (المغرب، 1996)، ص 71.

3 محمد الناصري، التمدنية وتطور المدن العربية الإسلامية، المرجع السابقة.

4 عبد الرحمن المالكي، الثقافة والمجال: دراسة سوسولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسولوجيا التنمية الاجتماعية، المغرب 2015، ط1، ص 25.

التحضر كعملية اندماج أو ادماج حضري؛ التحضر عملية مثقفة أو ثقاف حضري؛ التحضر كعملية إعادة بناء ونشك الهوية.

لقد شكل الامتداد الترابي بمنطقة إقليم سيدي قاسم، موطن العديد من الحضارات والأقوام التي عبرت بالمغرب خلال التاريخ القديم والمتوسط؛ كانت منطقة إقليم سيدي قاسم المنتمية إلى منطقة الغرب التاريخية في المجال المغربي، موطن العديد من مكونات المجتمع خلال التاريخ الحديث، وشكلت موطن بناء عديد من المستوطنات السكانية التي تم الإشارة لها في المصادر التاريخية، أهمها وأشهرها "مدينة البصرة" في منطقة الغرب التي يشير لها الحسن الوزان⁽¹⁾، ومن الجدير بالإشارة في هذا السياق التاريخي، الإشارة إلى أن مدينة سيدي قاسم التي تعد عاصمة الإقليم اليوم؛ كانت منطقة "الزواية" التي تدخل ضمن المجال الحضري للمدينة من بين النواة الحضرية الأولى⁽²⁾، وحين حل الاحتلال الفرنسي في منطقة إقليم، وزرع الاحتلال المعمرين الفرنسيين هناك قام المستوطنين بإطلاق تسمية على مدينة سيدي قاسم الحالية اسم PETIT-JEAN.

2-2 ساكنة إقليم سيدي قاسم وأوساط الإقامة:

في إقليم سيدي قاسم ومن خلال نتائج إحصاء 2014 (RGPH2014) التي أشارت أن عدد سكان الإقليم وصل 522070 نسمة، تقيم بالوسط القروي ما مجموعه 353636 نسمة، في مقابل 168434 نسمة بالوسط الحضري، أما عدد الأسر الذي بلغ عدده ما مجموعه 99191 أسرة، تقيم منها 61422 أسرة بالوسط القروي، في حين لا يتعدى عدد الأسر التي تقيم بالوسط الحضري 37769 أسرة، وعلى ضوء هذه النتيجة السكانية والسكنية، صنف إقليم سيدي قاسم من بين الأقاليم الترابية المغربية التي تتسم ديناميتها الحضرية، بأقل الأقاليم تمدنا، حيث لا يشغل المجال الحضري من خلال بعد الإقامة سوى ثلث عدد سكان الإقليم.

1 للمزيد ينظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983 ط2.
2 للمزيد حول هذا الموضوع ينظر: مبارك الشيكور، "سيدي قاسم"، معلمة المغرب: المغرب الأقصى (قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية و الحضارية للمغرب الأقصى) (ج 15)، (المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 2004)، ص5216.

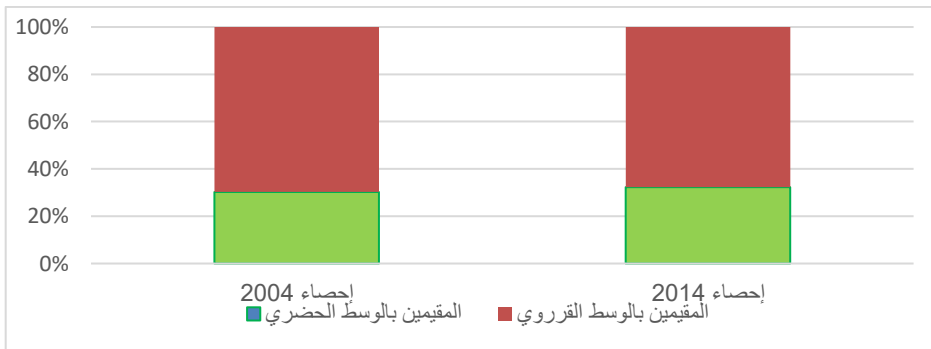
2-3 مقارنة التمدن بإقليم سيدي قاسم داخل مشهد الحضري بجهة الرباط سلا القنيطرة:

يحتل إقليم سيدي قاسم بالمقارنة مع باقي أقاليم جهة الرباط سلا القنيطرة، فقط، سوى خمسة بالمائة من مجموع الساكنة الحضرية بالجهة، لاسيما أن جهة الرباط سلا القنيطرة، بلغ فيها نسبة التحضر 69.8 %، حسب نتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى (RGPH2014)، بعدما كانت الجهة يسجل بها في السنة الإحصائية 2004، ما يقدر بـ 67.4% (RGPH2004).

ومن خلال قراءة أرقام وسط الإقامة على صعيد إقليم سيدي قاسم، يتبين أن نسبة السكان المقيمين بالوسط الحضري على صعيد إقليم سيدي قاسم، لا تتجاوز ما نسبته 32.26%، في حين تتجاوز نسبة السكان المقيمين بالوسط القروي بـ 67.74%، أما حسب متغير الأسرة، إذ نجد ما نسبته 62% من الأسر تقيم بالوسط القروي.

وحسب إحصائيات 2004 كان يقدر عدد الساكنة المقيمة بالوسط القروي بحوالي 341444 نسمة، في حين لم يتجاوز عدد المقيمة بالوسط الحضري 147978 نسمة، وخلال سنة الإحصائية لعام 2014؛ سجل وسط الإقامة في المجال القروي، ما نسبته 353639 نسمة، بينما بلغ عدد سكان الإقليم في الوسط الحضري ما نسبته 168631، ومن الجدير بالإشارة، أن الزيادة 32848 نسمة، توزعت على نسبة 37 %، بالأوساط القروية، 63 % بالأوساط الحضرية.

مبيان 02: مقارنة المقيمين بالوسط القروي والحضري بإقليم سيدي قاسم من خلال محطة الإحصائية 2004 و2014



إعداد الباحث، المصدر: موناغرافية إقليم سيدي قاسم 2016

ومن المعلوم على صعيد جهة الرباط سلا القنيطرة، نجد أربع وكالات حضرية، ويقدم الجدول التالي هذه الوكالات مع مؤشرات التمدن بها على صعيد كل وكالة حضرية.

جدول 02: الوكالات الحضرية بجهة الرباط سلا القنيطرة ومؤشرات التحضر حسب كل وكالة

معدل التحضر	الكثافة السكانية	مجموع عدد السكان	عدد الجماعات الترابية		عدد العمالات	اسم الوكالة
			الحضرية	القروية		
90.00%	527.00 / km ²	574553	10	0	1	الوكالة الحضرية صخيرات-تمارة
96.00%	-	1480616	4	2	2	الوكالة الحضرية الرباط-سلا
67.60%	238.00 / km ²	1904112	10	53	3	الوكالة الحضرية قنيطرة - سيدي قاسم
52.00%	-	539828	4	31	-	الوكالة الحضرية للخميسات

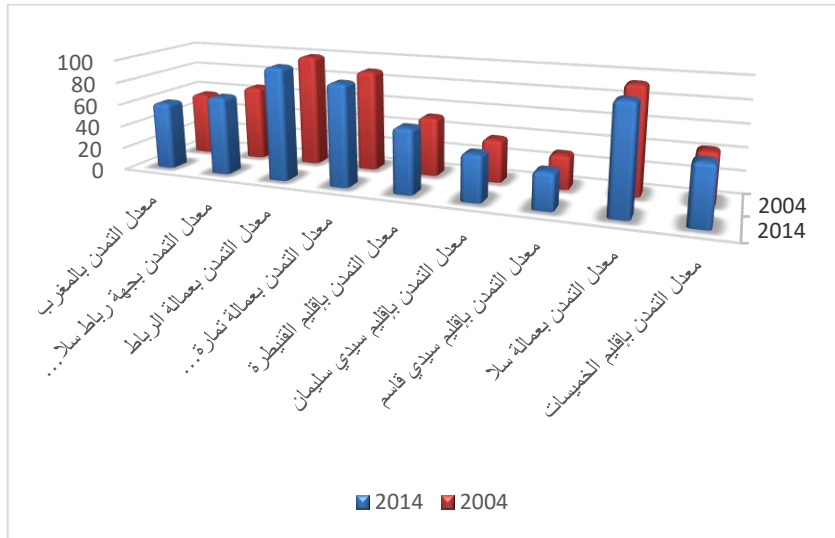
إعداد الباحث، المصدر: موقع فدرالية الوكالات الحضرية بالمغرب: <https://www.federation->

majal.ma/ar/reseau-aum والمندوبية السامية للتخطيط

ومن خلال عملية المقارنة بين نسبة السكان القرويين والحضرين على صعيد الإقليم والجهة، يتبين أن نسبة السكان بالوسط الحضري على مستوى الجهة مرتفعة، حيث قارب سبعين بالمئة، في حين لا تتعدى في إقليم سيدي قاسم 33 بالمئة، وهذا ما يستنتج، أن نسبة السكان الحضريين ترتفع على مستوى الجهة، وتنخفض على مستوى الإقليم، إذن المجال الترابي للإقليم تغطي على مشهده الساكنة المقيمة بالوسط القروي، ومنه نستخلص أن المجال الاجتماعي هو قروي بامتياز.

مبيان 03: مقارنة معدل التمدن على صعيد أقاليم وعمالات رباط سلا القنيطرة خلال سنة 2004

و2014



إعداد الباحث، المصدر: موناغرافية إقليم سيدي قاسم 2016

2-4 مشهد الإقامة المتوقع مستقبلا:

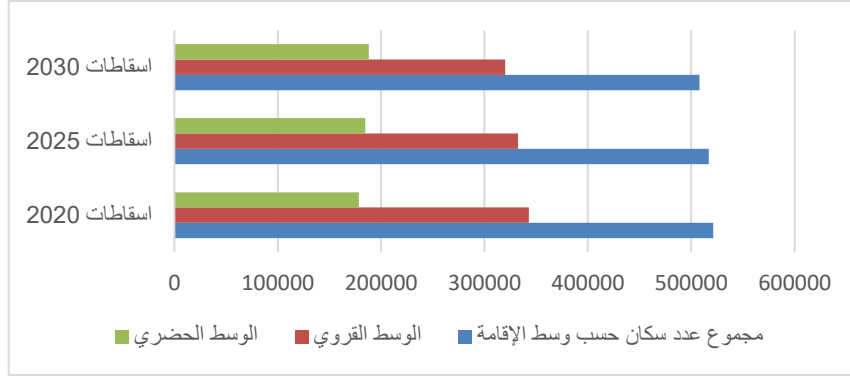
بناء على منهجية اسقاطات الإحصائية المعمول بها، تشير التوقعات الإحصائية أنه "سينخفض عدد سكان إقليم سيدي قاسم من 522058 نسمة سنة 2015 إلى 508098 نسمة في أفق 2030، أي بانخفاض ديمغرافي إجمالي يعادل (13960- نسمة"، ويهم هذا الانخفاض الذي من المرتقب سيسجل حسب الاسقاطات الإحصائية للمندوبية السامية المتعلقة بإقليم سيدي قاسم⁽¹⁾؛ يخص "هذا الانخفاض أساسا ساكنة الوسط القروي

1 المندوبية السامية للتخطيط، موناغرافية إقليم سيدي قاسم-2016، المديرية الجهوية لجهة الرباط سلا القنيطرة، ص20.

التي ستتقلص بمعدل سنوي يصل إلى 0.63%؛ في المقابل سيعرف عدد سكان المدن اطرادا في عدد السكان؛

حيث من المحتمل أن يعرف عدد سكان المدن بإقليم سيدي قاسم تزايدا "بمعدل سنوي يعادل 0.67%".

مبيان 04: استشراف عدد السكان بين الوسط القروي والحصري 2020-2030

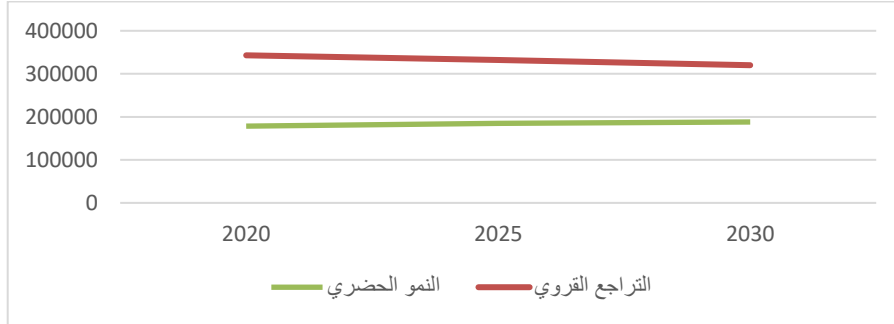


إعداد الباحث، المصدر: مونغرافية إقليم سيدي قاسم 2016

كما هو واضح في المبيان، وكما هو مرجح من خلال الإسقاطات الإحصائية، سيعرف الإقليم تراجعاً لعدد السكان، فقد يتراجع عدد سكان حسب الإسقاطات الإحصائية لسنة 2015 من 522277 إلى 521390 سنة 2020؛ أي تراجع يقدر بـ 887 نسمة، ومن المرجح أن يستمر هذا التراجع إلى من 52390 إلى 516842 نسمة خلال 2025؛ أي تراجع عدد سكان الإقليم من سنة 2020 إلى سنة 2025 بما يقدر بـ 4548 نسمة، وقد يصل هذا التراجع في أفق 2030 إلى بما يقدر بـ 8744 نسمة؛ إجمالاً سيتراجع عدد سكان إقليم سيدي قاسم خلال العقد القادم 2020 إلى 2030 بحوالي 13292 نسمة ما يعادل سكان جماعة ترابية قروية، في خضم هذا التراجع سيعرف المشهد الحضري من خلال وسط الإقامة نمواً مطرداً، دون أن يصل سنة 2030 إلى 200000 نسمة، في المقابل سيتراجع عدد السكان المقيمين بالمجالات الترابية القروية.

مبيان 05: استشراف النمو الحضري والتراجع القروي للسكان المرتقب على صعيد إقليم سيدي

قاسم



إعداد الباحث، المصدر: مونغرافية إقليم سيدي قاسم 2016

3- توطین المجالات الحضرية والقروية بإقليم سيدي قاسم وخصائصها السكانية

في إقليم سيدي قاسم يتم تصنيف خمس جماعات ترابية ضمن التصنيف الجماعات الترابية-الحضرية، وهي كل من جماعة حد كورت وسيدي قاسم وجرف الملحة ودار الكداري ومشروع بلقصييري.

جدول 03: شبكة المدن بإقليم سيدي قاسم

اسم المدينة	عدد السكان	عدد الاسر
حد كورت	7843	1777
سيدي قاسم	75672	17923
جرف الملحة	28681	5888
دار الكداري	6643	1298
مشروع بلقصييري	31497	7017

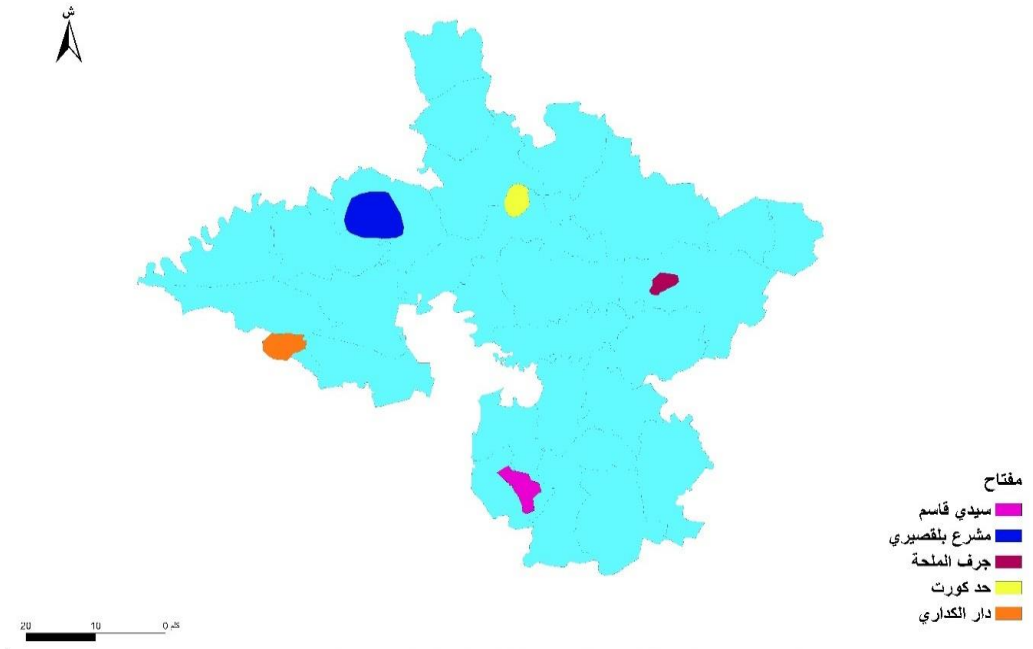
إعداد الباحث، المصدر: موقع المندوبية السامية للتخطيط (RGPH2014)

من الجدير بالذكر الإشارة إلى المراكز القروية ببعض الجماعات الترابية بإقليم سيدي قاسم، حيث هناك مجموعة من المراكز التي تم الارتقاء بها، ومن أبرزها المراكز المسجلة في إحصاء 2014، مركز الخنيشات، ومركز زرارة، لكن يلاحظ ميدانيا في المجال الترابي لإقليم سيدي قاسم بزوغ مراكز أخرى كمركز عين الدفالي وغيرها من المراكز التي ستحتل في المستقبل مركزا في شبكة الجماعات الحضرية بالإقليم، أي هناك مراكز واعدة

مجاليا من حيث التوسع العمراني وجذب السكان في المنطقة هي من ستحدد ملامح التحولات المجالية والحضرية بإقليم سيدي قاسم بالإضافة إلى المدن الرئيسية بإقليم.

خريطة 02: توطين المدن بإقليم سيدي قاسم

توطين الجماعات الترابية الحضرية بإقليم سيدي قاسم



توطين الجماعات الترابية الحضرية، اعداد الطالب الباحث، المصدر التقسيم الترابي 2015

إعداد الباحث، المصدر: المندوبية السامية للتخطيط ومونوغرافية إقليم سيدي قاسم 2016

خاتمة:

إن تجلى إقليم سيدي قاسم عرف نموا حضريا بالأساس في تشكل مدينة جرف الملح، التي أصبحت قطبا مديني بإقليم، محتلة بذلك المدينة الثالثة بعد مدينة سيدي قاسم التي تعد عاصمة الإقليم ومدينة بلقاصيري، وهذا له دلالاته الترابية في التحولات الترابية، لكن هذا الإقليم معرض في السنوات المقبلة إلى تحولات مهمة من حيث الدينامية السكانية والمجالية، فمن المرتقب والمرجح حسب الإسقاطات الإحصائية للمندوبية السامية، أن يعرف إقليم سيدي قاسم، تراجع عدد السكان، وفي خضم هذا التراجع السكاني، سيعرف المشهد الحضري، من خلال بعد وسط الإقامة نموا دون أن يصل سنة 2030 إلى 200000 نسمة، وهذا سيكون على حسب تراجع المقيمين في المجالات القروية على صعيد الإقليم؛ أي سيكون المجال القروي بإقليم سيدي قاسم

في حركة هجرة سكانية من الجماعات الترابية-القروية إلى الجماعات الترابية-الحضرية سواء داخل الإقليم أو خارجه. وهذا ما يضع الإقليم في دوامة نزيف الهجرة السكانية لدواعي تتعلق بظروف السكن من جهة والبحث عن العمل من جهة ثانية، وبالتالي إننا إزاء وضع مجالي طارد يحتاج إلى إعادة النظر في الظروف الاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما يتطلب نموذجا تنمويا ناجعا على صعيد الإقليم يجعل من أولوياته تحقيق الكامل لمتطلبات السكن التي أصبحت أكثر من مجرد تزويد الساكنة بالمتطلبات البنية التحتية وسوسيواقتصادية، بل خلق اقتصادا يتماشى مع ظروف الساكنة التي باتت تتصارع من أجل كسب القوت اليومي، الذي تزداد ظروفه صعوبة نظرا لمتغيرات الفقر، والظروف المناخية، وعبء كلفة المعيشة.

قائمة المراجع :

1. الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983 ط2.
2. شيكر مصطفى، التقلبات المناخية وانعكاساتها على النشاط الفلاحي بجماعة احد كورت وضاحتها، من خلال تمثيلات الفلاحين، المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات، المجلد 2، العدد 15، الأردن 2021.
3. عبد الرحمن المالكي، الثقافة والمجال: دراسة سوسيوولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيوولوجيا التنمية الاجتماعية، المغرب 2015، ط1.
4. غازي عبد الخالق، معطيات طبيعية حول الوسط الطبيعي لمنطقة الغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، سلسلة ندوات ومنشورات رقم 3، المغرب 1991.
5. اللامركزية في أرقام 2014-2015، إعداد وزارة الداخلية المديرية العامة للجماعات المحلية.
6. مبارك الشيكور، "سيدي قاسم"، معلمة المغرب: المغرب الأقصى (قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية و الحضارية للمغرب الأقصى) (ج 15)، (المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 2004).
7. محمد الجوهري، "الفروق الريفية الحضرية" في: عالية حبيب وآخرون، علم الاجتماع الريفي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان 2011 ط2.

8. محمد الناصري، التمديدية وتطور المدن العربية الإسلامية، مجلة آفاق، العدد 58 (المغرب، 1996).

9. المندوبية السامية للتخطيط، مونوغرافية إقليم سيدي قاسم-2016، المديرية الجهوية لجهة الرباط سلا القنيطرة.

10. نتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى 2014 (RGPH 2014).

جودة التعليم العالي في ظل التحول الرقمي: الفرص والإمكانيات

Quality of higher education in the era of digital transformation: Opportunities and potentials

د. عمر شربي / أكاديمية الرباط، سلا- القنيطرة، المملكة المغربية

Dr. Omar Chahbi / the Academy of Rabat - Sale - Kenitra / Kingdom of Morocco

Abstract:

This academic article addresses the topic of the quality of higher education in relation to the digital transformation in the field of education. This has resulted in an educational technological system commonly known as e-learning, digital education, distance learning, or also referred to as educational technology as a modern educational trend based on investing in the achievements of digital development. This article aims to highlight the theoretical references that have addressed the concepts of quality, digitization, and digital education, as well as to uncover the numerous opportunities and vast potentials that educational technology offers to enhance the quality of higher education in particular. This includes providing opportunities for instant and productive interaction, easy and smooth access to knowledge, as well as organizing and absorbing it according to self-learning processes that enhance independence and support the directions aimed at promoting self-learning and lifelong learning, as essential features for individuals of the 21st century.

Keywords: Quality – higher education - digital transformation - e-learning.

ملخص:

يعالج هذا المقال الأكاديمي موضوع جودة التعليم العالي في علاقتها بالتحول الرقمي في حقل التربية والتعليم، والذي أثمر منظومة تكنولوجية تعليمية صار مصطلح علمها بالتعليم الإلكتروني أو التعليم الرقمي أو التعليم عن بعد، أو يعبر عنها كذلك بمصطلح تكنولوجيا التعليم بوصفها نزعة تربوية حديثة تركز على استثمار منجزات التطور التكنولوجي والرقمي. ويرنو هذا المقال، بالإضافة إلى تسليط الضوء على المرجعيات النظرية التي تناولت مفاهيم الجودة والرقمنة والتعليم الرقمي، إلى الكشف عن الفرص المتعددة والإمكانات الهائلة التي يتيحها استثمار تكنولوجيا التعليم في الرفع من جودة التعليم العالي على الخصوص، وذلك بما يوفره من إمكانيات للتفاعل الآني والمثمر، وكذا الوصول السهل والسلس للمعرفة، والاشتغال عليها وتنظيمها واستيعابها وفق سيرورات تعلمية ذاتية، تعزز الاستقلالية وتدعم التوجهات الرامية إلى تكريس التعلم الذاتي والتعلم مدى الحياة، باعتبارها ملامح أساسية لإنسان ومواطن القرن الواحد والعشرين.

الكلمات المفتاحية: الجودة - التعليم العالي - التحول الرقمي - التعليم الإلكتروني .

مقدمة :

لا شيء ثابت إلا التحول، مقولة تختزل بشكل مكثف تصورا عاما مفاده أن التغيير بشكل عام هو سنة الله في الكون وأنه أمر محتوم وجب على الإنسان استيعاب أبعاده ومحاولة التلاؤم معه بما يحقق مصالحه. ومن يتأمل عالمنا اليوم يجد أن ثمة تغيرات هيكلية وتحولات جوهرية طرأت على العالم وحياة الناس ونظرتهم إلى الكون، وهي تحولات لم تقتصر على مجال دون آخر.

ولئن كان ميدان التعليم من أهم مجالات الفعل الإنساني لارتباطه ببناء العقل وصياغة الفكر والوجدان، فقد ناله ما نال المجالات الأخرى من تغير سواء على مستوى المضامين أو المقاربات والطرق التربوية والأساليب البيداغوجية، ذلك أنه م يعد اليوم ثمة بد من الانخراط في العصر الراهن ومستجداته، لاسيما فيما يتعلق بتكنولوجيا التعليم التي باتت حاجة ملحة بل وخيارا استراتيجيا فرضته التوجهات الحالية لجعل التعليم غير

مرتبطة بالزمان أو المكان، وكذا الحاجة إلى التعلم المرن أو التعلم الذاتي أو التعلم مدى الحياة، وهي أنماط لا يمكن تفعيلها إلا بالتعلم الرقمي، الذي من شأن اعتماده أن يوفر للعملية التعليمية عددا من الفرص والإمكانات.

تكنولوجيا التعليم أو التعليم الرقمي أو التعليم الإلكتروني أو التعليم عن بعد، كلها أسماء لوافد جديد على حقل التربية والتعليم، الذي ظل لردح من الزمن مؤطرا بطريقة تقليدية في التدريس، تقتضي التفاعل بين المعلم والمتعلم حضوريا داخل الفضاء المدرسي أو الجامعي، هذا الوافد الجديد الذي فرض نفسه اليوم بوصفه خيارا تعليميا حديثا يعد من أهم الموضوعات المطروحة على الساحة التعليمية الجامعية، إذ يعتبره كثيرون أحد أهم المداخل التي يمكن اعتمادها من تحسين جودة التكوين الجامعي والرفع من كفاءة هيئة التدريس، وذلك من خلال الاستفادة مما تتيحه التقنيات الرقمية الجديدة، من تطبيقات وبرمجيات وأدوات حديثة كفيلة بمساعدة الطالب الجامعي على استيعاب المقررات والبرامج التربوية والانخراط الفاعل في البحث العلمي وإثرائه، وهو الأمر الذي يمكنه من ضمان وتحقيق طموحه الدراسي والمهني.

تنبع أهمية الرقمنة في التعليم العالي من المكانة التي صارت تحظى بها في مختلف مناحي الحياة العامة والدراسية والمهنية، ولهذا فقد سعينا إلى مقارنة الإشكالية المتعلقة بأثر الرقمنة على جودة التعليم العالي - وما يقتضيه ذلك من حديث عن إشكالية تعريف الجودة ومعاييرها- من خلال اعتماد منهج وصفي تحليلي أتاح لنا الوقوف على إيجابيات الرقمنة في التعليم العالي وفوائدها، ذلك أن إتقان المهارات الرقمية لا يمكن الأساتذة من التحكم في جودة العملية التدريسية فحسب، بل هو اليوم شرط أساسي كذلك لإعداد المواطن في القرن الحادي والعشرين؛ لما لذلك من فوائد عديدة تسهم في اكتساب المهارات المعرفية والحياتية اللازمة للعيش في المجتمع الرقمي والاندماج في الوسط المهني، وبالتالي المساهمة في التنمية الشاملة للمجتمع، وهي أحد أهم وظائف المؤسسة الجامعية.

1. إضاءة تعريفية لمفهوم الجودة

إن أول خطوة يقتضيها البحث عن ملامح مفهوم ما وتجلية مختلف المعاني التي تشتبك به، هي تناول البعد اللغوي، بما هو بعد أساسي يؤثر ولاشك في صياغة الدلالة الاصطلاحية ويطبّعها بميسمه، وهكذا تحيل لفظة

الجودة في اللغة على نقيض الرداءة أو على الجيد والحسن والمتقن من القول والعمل، يقول ابن منظور: "الجيد: نقيض الرديء (...). وجاد الشيء جودة وجودة أي صار جيداً، (...) وَقَدْ جَادَ جَوْدَةً وَأَجَادَ: أَتَى بِالْجَيْدِ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ"¹. وفي معجم اللغة العربية المعاصرة: "جاد، يَجود، جَوْدَةً وَجَوْدَةً، فهو جَيِّدٌ، وجادَ الْعَمَلُ: حَسُنَ، علا مستواه (العمل في غاية الجودة والإتقان- جاد المتأخ: صار جيداً نفيساً)، وجادَ الرَّجُلُ: أَتَى بِالْحَسَنِ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ "شخصٌ جَيِّدٌ"².

يتبدى من خلال تناول الدلالة اللغوية أن جودة الشيء تتحدد من خلال سمات ومواصفات تميزه، فتنفي عنه الرداءة وتخلع عليه ثوب الحسن أو الإتقان أو الجودة، ولعل هذه المعاني تحضر في الدلالة الاصطلاحية لمفهوم الجودة الذي انبثق في عالم الاقتصاد والإنتاج والأعمال، إذ يرى فيليب كروسبي (Philip Crosby) أن الجودة هي "المطابقة مع المواصفات"³، وبهذا فالمنتج لا يحوز صفة الجودة إلا إذا تحققت فيه عدد من المواصفات بناء على انضباطه لمعايير ينتج عن تبنيها تحقيق الأهداف المنشودة من طرف المؤسسة.

وإذا كان كروسبي Crosby يركز على مواصفات المنتج، فإن إيشيكاوا (Ishikawa) يربط الجودة برضا الزبون وإشباع حاجاته ورغباته، ذلك أنه يُعَرِّفُ الجودة بأنها "القابلية لإشباع الزبون"⁴، وهو ما يعني كذلك أن هذا التعريف يركز على منظور الزبون أو المستفيد من المنتج، من منطلق المواءمة مع استعمالاته واستخداماته، وفي هذا السياق أيضا يسير جوزيف جوران (Joseph Juran) الذي يعرف الجودة على أنها "مدى ملاءمة المنتج للاستخدام"⁵، أي مدى قدرة هذا المنتج على الاستجابة لما يريده الزبون،

غير أن ثمة من يعتبر أن الجودة هي نتاج تكامل بين مواصفات المنتج أو الخدمة من جهة، ورغبات الزبون وتطلعاته أو رغبات المؤسسة من جهة أخرى، إذ يعرفها فيشر (Fisher) بأنها: "درجة التألق والتميز وكون

¹ ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، (مادة: جود)، دار صادر - بيروت، ط.3، سنة 1414 هـ، جزء: 3، ص 135.

² أحمد مختار عبد الحميد وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط.1، ج 1، سنة 2008، ص 417.

³ DETRIE Philippe, Conduire une Démarche Qualité, Paris: éditions d'organisation, 4 ème édition, 1998/ 2001, P20.

⁴ Ibid, P20.

⁵ Ibid, P20.

خصائص أو بعض خصائص المنتج ممتازة عند مقارنتها مع المعايير الموضوعية من منظور المنظمة أو من منظور المستفيد/الزبون¹.

وينسجم هذا التعريف مع منظور المعهد الأمريكي للمعايير الذي يعتبر أن الجودة هي: "جملة السمات والخصائص للمنتج أو الخدمة، التي تجعله قادراً على الوفاء باحتياجات معينة"²، كما يتواءم مع رؤية أرماند فيغانباوم Armand Feigenbaum للجودة باعتبارها: "الناتج الكلي للمنتج جراء دمج خصائص نشاطات التسويق والهندسة والتصنيع والصيانة والتي تمكّن من تلبية حاجات ورغبات الزبون"³، ويظهر هنا أن تحقيق الجودة هو ثمرة سيرورة من العمليات المرتبطة بالتسويق وما يتطلبه ذلك من دراسة وتقييم لمستوى الجودة المرغوبة من الزبناء، ثم الهندسة التي تتولى تحديد الخصائص الواجب توفرها في المنتج بناء على خلاصات وتقييمات إدارة التسويق، لتعمل وحدات التصنيع والإنتاج على تطبيق المعايير المحددة أثناء عملية تصنيع المنتج.

إلماعة حول الجودة في التعليم العالي

لقد شكلت المفاهيم المرتبطة بالجودة، والتي نشأت وتبلورت في المنظومة الصناعية والإنتاجية، قاعدة اعتمدت عليها الدراسات التي سعت إلى تحسين المنتج التعليمي ومخرجات العملية التعليمية في مؤسسات التعليم العالي، بما يعنيه ذلك من رفع لمستوى الأداء بما يمكن من التوفر على خريجين لديهم ما يكفي من المعارف والمهارات التي تؤهلهم للاندماج والتنافس في المجالات العملية والمهنية.

وتختلف التصورات بخصوص ماهية الجودة في التعليم العالي تبعاً لتنوع المنطلقات الفكرية والتصورية، ذلك أن ثمة من يركز على المناهج والمضامين ومرجعيات التكوين في المؤسسة الجامعية والتي من شأنها أن تحقق تطلعات الطالب المهنية، إذ ترى حليلة قادري ونصيرة بن نابي أن الجودة تتحدد في التعليم بمدى " قدرة الجامعة على الاهتمام ببناء مرجعيات لتكوين الطالب بطريقة تضمن مرونة عالية لمساره الدراسي والمهني، وحتى

¹ سوسن شاكر مجيد ومحمد عواد الزيادات، الجودة في التعليم: دراسات تطبيقية، عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 2008، ص 113.

² طعيمة رشدي أحمد، الجودة الشاملة في التعليم بين مؤشرات التمييز ومعايير الاعتماد، الأسس والتطبيقات، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، ط.1، سنة 2006، ص 21.

³ العزاوي محمد عبد الوهاب، إدارة الجودة الشاملة، دار اليازوري للنشر والتوزيع، عمان، سنة 2005، ص 15.

يكون قادرا على استيعاب المقررات والبرامج التربوية بما يتماشى وأهدافها المسطرة بإكسابهم أنماط فكرية وسلوكية، والتي تمكنه من ضمان وتحقيق طموحه المهني¹.

يظهر وفق هذا التصور أن الهدف الأساس من العملية التعليمية في المؤسسة الجامعية يتمثل في تلبية طموحات الطالب ورغباته واحتياجاته، غير أن ما يلحظ هنا هو التركيز على رضا المستفيدين من الدراسة والتكوين الجامعيين وإغفال الرهانات والغايات المتعلقة بالتنمية الشاملة للمجتمع ومتطلباته، وهكذا فجودة التعليم العالي وفق منظور أحمد أبو فارة هي: "مجموعة من الخصائص والصفات الإجمالية التي ينبغي أن تتوفر في الخدمة التعليمية بحيث تكون هذه الخدمة قادرة على تأهيل الطالب وتزويده بالمعرفة والمهارات والخبرات أثناء سنوات الدراسة العالية، وإعداده في جو جامعي متميز قادر على تحقيق أهدافه، وأهداف المشتغلين، وأهداف المجتمع التنموية"².

ويبدو واضحا هنا النزوع نحو الموازنة بين مطالب المتدخلين والمعنيين بالتعليم الجامعي، إذ تتحقق الجودة وفق هذا المنظور من خلال انسجام مُدخلات النظام التعليمي الجامعي المتعلقة برهانات المؤسسة الجامعية وغاياتها وطبيعة المضامين والمناهج والوسائل، ثم المخرجات التي تتصل باحتياجات الطالب ومتطلباته ورهانات المجتمع في التنمية والتطور، ذلك أن جودة المنتج التعليمي تقاس بمدى توفر الخريجين من الطلبة على المهارات والمعارف والكفاءات اللازمة التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم وتلبي احتياجات المجتمع وسوق الشغل. ويجمل رمزي سلامة في كتابه (ضمان الجودة في الجامعات العربية) مختلف المقاربات التي تناولت الجودة في التعليم العالي في أربعة مداخل، يقوم أولها على ربط الجودة بفكرة التميز لدى بعض مؤسسات التعليم العالي التي تركز على اعتبارات معينة متعلقة بالولوج إليها من قبيل شروط اختيار الطلبة وقبولهم، وخصوصيات المضامين والمقررات والامتحانات التي يخضع لها الطلبة، أما المدخل الثاني فيعمل على المواءمة مع الغايات بالتركيز على أهداف وغايات المؤسسة، غير أن ما يُعاب عليه هو عدم الأخذ بعين الاعتبار وجهة وجهة نظر

¹ قادري حليمة ونصيرة بن نابي، إشكالية جودة التكوين في نظام ل.م.د من خلال تطبيق المرافقة البيداغوجية للطلاب الجامعي، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 23، جوان 2017، ص 362.

² أبو فارة يوسف أحمد، واقع تطبيقات إدارة الجودة الشاملة في الجامعات الفلسطينية، المجلة الأردنية في إدارة الأعمال، المجلد الثاني، سنة 2006، ص 251.

المستفيدين من التّعليم العالي سواء كانوا طلبة، أو أصحاب مؤسسات التشغيل، أو حكومات وسائر أصحاب الشأن المعنيين من المجتمع ككل.

ويركز المدخل الثالث على تقييم الغايات والأهداف لقياس مدى ملاءمتها مع الاحتياجات المجتمعية، وتقييم العمليات من وجهة نظر الطلبة وتوسيع نطاق التّقييم ليشمل جودة المخرجات ومدى ملاءمتها لاحتياجات سوق العمل، أما المدخل الرابع فينظر إلى الجودة من منظور تأمين معايير الحد الأدنى، ويتميز هذا المدخل عن بقية المداخل الأخرى، من جهة، بأنه يعتمد على سلسلة من المعايير المحددة مسبقاً بشكل واضح والواجب احترامها؛ ومن جهة ثانية، يقضي هذا المدخل بأن تجرى عمليات ضمان الجودة تحت إشراف جهات خارجية مستقلة عن مؤسسة التّعليم العالي لتأمين الثقة المجتمعية في هذه العمليات وبنائها¹.

إن جودة التّعليم العالي في تصورنا هي خاصية تضمن الفعالية والكفاءة التي تفضي إلى تحقيق التميز والتفوق، وهي لا تتحقق إلا باجتماع وتناغم عدد من العوامل التي تنتظم ضمن ثلاثة محاور؛ يتعلق أولها بجودة مداخلات العملية التعليمية والتكوينية والبحثية، والتي تشمل تكوين الأستاذ وكفاءته، وجودة التكوين الذي تلقاه الطالب من قبل ومكتسباته السابقة، ثم جودة المناهج والبرامج والبنية التحتية بما فيها من تجهيزات ووسائل، أما المحور الثاني فيرتبط بجودة السيرورة التعليمية والتكوينية والبحثية والتي تتأسس بالضرورة على جودة المداخلات وحسن استثمارها، ثم المحور الثالث الذي يتصل بمخرجات العملية التعليمية والتكوينية والبحثية، والتي تشمل تقييم جودة المنتج التعليمي، وهو في هذه الحالة يتعلق بالطالب الذي يتم قياس مخرجات تعلمه وفق لمعايير الجودة الداخلية المتعلقة بأهداف النظام التعليمي العالي، ومعايير الجودة الخارجية المرتبطة بمتطلبات سوق العمل وحاجيات المجتمع في الاقتصاد والتكنولوجيا وغيرها من مجالات المعرفة الإنسانية.

2. إلماعة على معايير جودة التّعليم العالي

يواجه التّعليم العالي في الدول النامية على الخصوص تحديات متنوعة، ولعل أهمها تحدي الجودة، وذلك بالنظر إلى التطور السريع الذي تشهده حقول المعرفة الإنسانية وكذا متطلبات مجتمع المعرفة، وحاجيات

¹ ينظر سلامة رمزي، ضمان الجودة في الجامعات العربية، بيروت: الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، سنة 2005، ص 77.

وتوقعات سوق الشغل المتعلقة بكفاءات ومهارات الأفراد، فمؤسسات التعليم العالي اليوم ليست مجرد فضاءات لاكتساب معارف ومهارات تعين الطالب على القيام بوظيفة معينة مستقبلا، بل هي فاعل مركزي في تطوير المعرفة وتحقيق التنمية المجتمعية المنشودة.

ولهذا ف جودة التعليم العالي لا تتعلق بمدى قدرة المؤسسات الجامعية على تحقيق الأهداف المرتبطة بالبحث والتدريس فحسب، وإنما تقاس كذلك بمدى تأثيرها في المنظومة الاقتصادية وكذا مساهمتها في النموذج التنموي الوطني، ولتحقيق هذه الغايات تعمد السلطات الحكومية المكلفة بالتعليم العالي والبحث العلمي إلى إصدار وثائق أو تقارير رسمية تحدد مختلف معايير الجودة المنشودة، والتي تتعلق في غالب الأحيان بالمواصفات والمقاييس المرتبطة بجودة الخدمة التعليمية والتكوينية والبحثية المقدمة من لدن المؤسسات الجامعية، ومواصفات الخريجين، ونتائج تحصيلهم الدراسي، وكذا المهارات والكفايات المكتسبة عبر مختلف مراحل التكوين الجامعي.

وقد تعددت التصنيفات لمعايير الجودة تبعا لاختلاف توجهات الهيئات المعنية بوضع إطار لمعايير الجودة وكذا تنوع آراء الدارسين ومشاربهم والفكرية، هذه التصنيفات التي تأتلف في عناصر وقد تختلف في أخرى. فإذا كان صالح ناصر عليما يرى أن الجودة ترتبط بعدد من العناصر وهي: "عضو هيئة التدريس والطالب والمناهج الدراسية والبرامج التعليمية وتقييم الطالب والإمكانيات المادية والعلاقة مع المجتمع وتقييم الأداء والإدارة"¹، فإن سوسن شاكر الجبلي تعتبر أن الجودة تتعلق أساسا " بجودة هيئة التدريس والطلبة والمناهج الدراسية والإمكانيات المادية والنظام الإداري والعلاقة مع المجتمع والاستقلالية والمسؤولية والتقييم"²، وتحدد الجودة في منظور الهيئة اليابانية لاعتماد الجامعات JUA – Japan Accreditation University Association بناء على العناصر الآتية: " الرسالة والغايات، الأهداف، هيكلية البحث والتعليم، أعضاء هيئة التدريس

¹ عليما صالح ناصر، إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات التربوية – التطبيق ومقترحات التطوير، دار الشروق، عمان، ط.1، سنة 2004، ص 114.

² الجبلي سوسن شاكر، معايير الجودة الشاملة في الجامعات العربية، مؤتمر العلوم التربوية والنفسية تجديدا وتطبيقات مستقبلية، جامعة اليرموك بغداد، 22 – 23 تشرين الثاني، سنة 2005، ص 11.

وهيكلية الكليات والبرامج، التدريس والنواتج، قبول الطلبة، خدمات الطلبة، البيئة التربوية والبحثية، التعاون الاجتماعي والمساهمة المجتمعية، شؤون الإدارة والمال، نظام الجودة الداخلي"¹.

وللكشف عن معايير الجودة كما تعتمدها بعض المؤسسات الرسمية المختصة بقطاع التعليم العالي، سنعرض لنموذجين اثنين؛ يتعلق الأول بتقرير حول جودة التعليم العالي، أصدرته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والتكنولوجيا بإقليم الكيبك-كندا، تحت عنوان (الدفتر الموضوعاتي: جودة التعليم العالي في الكيبك)، أما النموذج الثاني، فيتمثل في مرجع لتقييم وضمان جودة التعليم العالي حول معايير الجودة، أصدرته الوكالة الوطنية لتقييم وضمان جودة التعليم العالي والبحث العلمي بالمغرب.

وتحدد جودة التعليم العالي بإقليم الكيبك بحسب التقرير الكندي تبعاً للمعايير والمؤشرات الآتية²:

- تحقيق المؤسسات للأهداف المنشودة فيما يتعلق برسالتها التدريسية: وتستخدم في أغلب الأحيان مؤشرات من قبيل معدل التخرج، لتحديد ما إذا كانت الجامعة تحقق أهدافها أم لا.
- تحسين التعليم من كفاءة الأفراد: وترتبط الجودة هنا بالتعلم ونتائج الطلاب، فمستوى الكفاءة الذي حققوه يشهد على الجودة من وجهة نظر القيمة المضافة.
- تشجيع التدريس على التميز: وتظهر الجودة هنا من خلال الموقع النسبي للمؤسسات في مختلف التصنيفات الوطنية أو الدولية. ويعتبر الاعتراف بالدبلومات وعدد الشراكات الجامعية أو الاتجاهات البحثية المشتركة والتواجد في قائمة الجوائز، مؤشرات على التميز في التدريس من بين أمور أخرى.

¹ الأمين عدنان، قضايا النوعية في مؤسسات التعليم العالي في البلدان العربية، الكتاب السنوي الثامن للهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، بيروت لبنان، سنة 2014، ص 805.

² Cahier thématique: la qualité de l'enseignement supérieur au Québec, Bibliothèque et Archives nationales du Québec, mesrst, p.3

ولأن الحفاظ على جودة التعليم العالي وتحسينها - وفق الدفتر الموضوعاتي - هو رصيد استراتيجي لمجتمعات المعرفة مثل الكيبك، فمن الضروري الحرص على أن يعمل نظام التعليم العالي على النحو الأمثل ويضمن جودة التكوين. ومن ثم فتحقيق الجودة يستدعي العمل على تحسين المناحي الآتية:

• الحضور المنتظم للأساتذة في جميع الأسلاك التعليمية.

• التوازن في مساهمة الأساتذة والمكلفين بالدروس.

• الصلة بين التدريس والبحث وخدمة المجتمع.

• الحركية الطلابية بين المؤسسات الجامعية الوطنية والدولية.

• إعداد الطلاب لحياة ما بعد الجامعة، وإدماجهم الاجتماعي والمهني، ومساهمتهم الفكرية في مجتمع أكثر استنارة وأكثر ممارسة للنقد.

وإذا انتقلنا إلى التجربة المغربية، فالاهتمام بوضع معايير محددة للجودة أسفر عن عمل متميز تمثل في إصدار مرجع وطني لتقييم جودة التعليم العالي، وهو ثمرة تعاون بين الخبراء الجامعيين المغاربة والخبراء الأوروبيين، هذا المرجع الذي أتى في سياق مشروع المواكبة التقنية المدعم من الاتحاد الأوروبي، وفي إطار الوضع المتقدم للمغرب بالنسبة للاتحاد الأوروبي، وهو نتاج كذلك لمشاركة فاعلة من قبل العديد من الهيئات والمؤسسات العمومية والخاصة المعنية بالتعليم العالي، لقد وُضع هذا المرجع سواء من حيث الشكل أو المضمون لكي يتم اعتماده وتبنيه من أجل إجراء التقييمات الداخلية والخارجية لمختلف مؤسسات التعليم المغربية العمومية والخصوصية، وتم تصميم هذا المرجع وفق خمسة مجالات، تضم خمسة عشر حقلاً للاشتغال، تحتوي على ثمانية وثلاثين مرجعاً، مقسمة إلى مائة وستة وأربعين معياراً.

يضم المجال الأول المعنون بالحكمة وتدبير وظائف الدعم حقول: حكمة المؤسسة ثم سياسة وتدبير ضمان الجودة، وكذا نظام الإعلام والتواصل، أم المجال الثاني الموسوم بالتكوين، فينطوي على حقل تصميم وعرض التكوينات وحقل تخطيط التكوينات وتنظيمها وتنفيذها وتقييمها، ثم حقل التجديد البيداغوجي، ويتضمن المجال الثالث المعني بالبحث العلمي حقول: سياسة البحث العلمي وتنظيمها، و التعاون العلمي، ثم إنتاج

وتضمن البحث العلمي، وكذا تقييم البحث العلمي، ويتعلق المجال الرابع بمواكبة الطلاب والحياة الطلابية، ويضم الحقول المتعلقة بقبول الطلاب وتوجيههم، وكذا الحياة الطلابية والأنشطة الجامعية الموازية، ثم تتبع الخريجين وتوظيفهم، أما المجال الخامس والأخير، فيتمحور حول خدمات المؤسسة الجامعية إزاء المجتمع¹.

بعد استعراض معايير الجودة في التعليم العالي، سواء من خلال بعض الكتابات والدراسات أو الوثائق الرسمية في المغرب وكندا، يظهر أن الجودة في التعليم عموماً وفي التعليم العالي على وجه الخصوص هي توليفة تنسخ خيوطها انطلاقاً من جودة تصميم العملية التعليمية، وجودة تدبيرها ثم جودة مخرجاتها، أي أن هذه العملية ينبغي تصميمها وفق مجموعة من المعايير المحددة، ثم تدبيرها وإدارتها وفق معايير معلنة وواضحة، وذلك للحصول على مُنتج تعليمي تتحقق فيه المواصفات والمعايير المتوقعة والمطلوبة سواء داخلياً أي المعايير المتعلقة بجودة التكوين، أو خارجياً بما يعنيه ذلك من علاقة مع المجتمع وسوق الشغل.

تبنى جودة التعليم العالي في تصورنا على عدد من المعايير الجوهرية المرتبطة أساساً بالتكوين الجامعي الذي يجب صياغته وتقديمه وفق شروط أهمها التلائم مع المعايير الوطنية والدولية، والحرص على تهيئة الظروف التي تضمن نجاعة العملية التعليمية، سواء تعلق الأمر بتهيئة التدريس وتحفيزها وتعزيز مهاراتها وقدراتها التدريسية لاسيما فيما يتعلق بالتقنيات المستعملة في التعليم الرقمي، ثم الشروط المتصلة بالبنية التحتية، أي الفضاء الجامعي بكل مكوناته، وكذا توفير الوسائل اللازمة لمساعدة لتهيئة التدريس وأيضا الطلبة، ويشمل ذلك الكتب والمراجع والموارد الرقمية، إن المؤسسة الجامعية التي ترنو إلى تحقيق الجودة هي تلك المؤسسة التي تستطيع توفير حاضنة إيجابية وداعمة للتميز والبحث والابتكار، بما يلي أهداف المؤسسة من جهة، ويستجيب لتوقعات وانتظارات البيئة المهنية من جهة ثانية.

¹ لتتعرف على مختلف المعايير المتضمنة في هذه الحقول، يرجى على الاطلاع على:

3. جودة التعليم العالي في ظل التحول الرقمي

لم يعد يُنظر اليوم إلى الممارسة التعليمية في الجامعة بمعزل عن التحولات الهائلة التي طرأت على عالمنا ولاسيما حضور الرقمنة التي أضحت من لوازم الاشتغال التي لا مناص منها، ومعيارا أساسيا من معايير الجودة وتقييم المنظومة التعليمية، ذلك أنه لم يعد مقبولا اليوم أن تظل الجامعة بعيدة عن هذا الانفجار الرقمي الذي اكتسح معظم مجالات النشاط والحياة الإنسانين، إلى درجة أن الحدود بين العالم الواقعي والعالم الرقمي أو الافتراضي لم تعد واضحة بما فيه الكفاية، وذلك بالنظر إلى التداخل بين هذين العالمين والتفاعل الحاصل بينهما. إن الإقرار بأهمية الرقمنة وضرورة استثمارها من أجل تطوير الممارسة التعليمية في التعليم العالي يستدعي الوقوف عند المنافع التي قد تجنيها منظومة التعليم العالي من رقمنة العملية التعليمية التي ظلت ردحا طويلا من الزمن مؤطرة بعلاقة مباشرة وتفاعلية بين الأستاذ والطالب، وأساليب بيداغوجية تنبني على البعد الحضوري في العملية التعليمية.

3.1 إلماعات حول مفاهيم الرقمنة والتعلم الرقمي والتعليم عن بعد

لقد صار جليا اليوم أن الممارسة التعليمية في ثوبها التقليدي تواجه تحديات كبرى غير مسبقة مرتبطة بتحولات تكنولوجية ومعرفية جوهرية، نجم عنها انبثاق أشكال جديدة من التعليم، اتخذت تسميات متعددة من قبيل التعليم الرقمي والتعليم الافتراضي والتعليم عن بعد وغيرها من الأنماط التي تلتقي جميعها في حضور الرقمنة بوصفها المرتكز الأساس، وهو الأمر الذي يستدعي الوقوف قليلا عند هذا المفهوم.

فالرقمنة بصورة عامة كما يعرفها محمد فتحي عبد الهادي هي: "عملية نقل أو تحويل البيانات إلى شكل رقمي آلي، وفي نظم المعلومات عادة ما يشار إلى الرقمنة بالمعالجة بواسطة الحاسب على أنها تحويل النص المطبوع أو الصور إلى إشارات ثنائية باستخدام وسيلة آلية، وفي الاتصالات بالمسح الضوئي لإمكان عرض

النتيجة على شاشة الحاسب عن بعد، وفي علم المكتبات والمعلومات يقصد بالرقمنة عملية إنشاء نصوص رقمية من الوثائق التناظرية¹.

يظهر إذن أن الرقمنة تقوم أساساً على استثمار الحاسوب في تحويل مختلف البيانات والنصوص والوثائق والموارد من صورتها الأصلية إلى صورة رقمية، ومعالجتها آلياً باستعمال ما تتيحه تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي من إمكانيات معلوماتية وحاسوبية متطورة، كما تشمل الرقمنة كذلك تداول المضامين والمحتويات الرقمية وتبادلها عن طريق استعمال مختلف البرمجيات والتطبيقات التي تستثمر شبكة الانترنت، ولعل هذه التحولات التي مست مختلف مجالات الفعل الإنساني لم تستثن التعليم بشكل عام والتعليم العالي على وجه الخصوص، ذلك أن الرقمنة في التعليم العلي تتمثل وفق عبد الباقي عبد المنعم أبو زيد في "كل ما يستخدم في عملية التعليم والتعلم من تقنيات المعلومات والاتصالات، والتي تستخدم بهدف تخزين، معالجة، استرجاع ونقل المعلومات من مكان لآخر، فهي تعمل على تطويره وتجويده بجميع الوسائل الحديثة كالحاسب الآلي وبرمجياته، شبكة الانترنت، قواعد البيانات، الموسوعات، الدوريات، المواقع التعليمية، البريد الإلكتروني، البريد الصوتي، التخاطب الكتابي والصوتي، المؤتمرات المرئية، الفصول الدراسية الافتراضية"².

لقد نجم عن رقمنة التعليم، أي توظيف التكنولوجيا الحديثة في تخطيط العملية التعليمية وتديريها، ظهور مفاهيم جديدة تحيل على أنماط تعليمية رقمية، من قبيل مفهوم التعلم الرقمي الذي يُعرّف - وفق إياد ألطف- بأنه "تعلم يعتمد على استخدام تقنية المعلومات والاتصال، أي الانفتاح المطلق على الوسائل الرقمية بكافة أنواعها وأشكالها، لذا لا بد من الأخذ بعين الاعتبار الأهداف التي نسعى لها من أجل خدمة العملية التعليمية التعلُّمية"³.

¹ محمد فتحي عبد الهادي، رقمنة الدوريات العربية - مشروع رقمنة الدوريات بدار الكتب المصرية نموذجاً، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مجلد 17، عدد 2، نوفمبر 2011، ص 2-3.

² أبو زيد عبد الباقي عبد المنعم، معوقات تكنولوجيا المعلومات والاتصال في مناهج المواد التجارية بالتعليم الثانوي، المؤتمر الدولي الأول حول استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال لتطوير التعليم قبل الجامعي، مصر، سنة 2007، ص 6.

³ ألطف إياد، اثر التعلم الرقمي باستخدام الأجهزة الذكية، مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والنفسية، المجلد 10، عدد 3، أبريل 2019، ص

إن التعلم الرقمي كما يبدو من خلال هذا التعريف يقوم على استبدال فضاء الفصل الدراسي بمكوناته البشرية والمادية، بفضاء افتراضي يستثمر منجزات تكنولوجيا الاتصال والتواصل التي تتيح التلاقي والاجتماع بالرغم من التباعد المكاني والجسدي، أي تعويض التدريس الحضوري الذي يتم تحت سقف الفصل بتعليم عند يتم عن طريق استعمال وسائط إلكترونية.

وإذا كانت تعريفات مفهوم التعلم عن بعد متعددة، فإن تجمع على المعطى المتعلق بتوظيف الوسائل التكنولوجية الرقمية في التواصل مع متعلم بعيد مكانيا عن المدرس، فالتعليم عن بعد وفق الباحث حسن بلحياح هو: "نظام لإيصال المعرفة لمتعلم بعيد عن المؤسسة التعليمية إما عن طريق المطبوعات أو الملفات الإلكترونية أو التلفاز أو وسائل التكنولوجيا أو عبر الإنترنت"¹، وتسير الباحثة سعاد اليوسفي في الاتجاه نفسه حينما تؤكد أن هذا النمط من التعليم (عن بعد) "يعتمد مجموعة من التقنيات كالتعليم الإلكتروني والتعليم بالإنترنت والتعليم الافتراضي وغيرها، وكل ذلك وفق طرائق تعليمية ملائمة"².

يتضح من خلال ما تقدم أن التعلم عن بعد، بما هو تعلم رقمي يتم بعيدا عن الفصل الدراسي، هو نمط من التعليم يحضر فيه المكون التكنولوجي المرتبط بكل الأدوات التقنية الرقمية التي تستثمر من أجل التعلم أو الاتصال والتواصل كالحاسب الآلي واللوحات الإلكترونية وشبكة الإنترنت وغيرها من الأدوات الأخرى. وينضاف هذا المكون التكنولوجي إلى مكونات وأقطاب العملية التعليمية الأخرى وهي المعلم والمتعلم ثم المعرفة، وهذا ما يطرح بعض التحديات على مستوى ملاءمة العملية التعليمية مع المعطيات الرقمية والأبعاد البيداغوجية، وذلك بما يمكن من الاستفادة من هذه التكنولوجيا الحديثة في تطوير التعليم بفضل ما تتيحه من إمكانات وفرص، وعلى رأسها إمكانية تجاوز بعض الإكراهات التي تعترض العملية التعليمية التقليدية من قبيل إكراهات ضيق الزمان وتباعد المكان أحيانا.

¹ بلحياح حسن، رهانات التعليم عن بعد في المغرب، ضمن الدليل المعرفي لجائحة كوفيد - المعرفة والابتكار والخبرة في مواجهة وباء كوفيد، منشورات جامعة محمد الخامس بالرباط، 18 ذو القعدة 1441 هـ، الموافق 10 يوليو 2020، ص 31.

² اليوسفي سعاد، الممارسات الفضلى للتعليم عن بعد والاستجابة التفاعلية للطلاب، ضمن الدليل المعرفي لجائحة كوفيد - المعرفة والابتكار والخبرة في مواجهة وباء كوفيد، منشورات جامعة محمد الخامس بالرباط، 18 ذو القعدة 1441 هـ، الموافق 10 يوليو 2020، ص 39.

3.2 التحول الرقمي: الفرص والإمكانات

تتيح الرقمنة إمكانية تحويل النصوص والصور والصوت ومختلف البيانات إلى موارد رقمية، ومن ثم معالجتها وتخزينها أو مشاركتها وتداولها متى كانت الحاجة إلى ذلك، وهكذا يمكن للرقمنة أن تكون وسيلة فعالة لربح الوقت والجهد، وذلك من خلال الاستعاضة عن استعمال الكتابة الورقية بإنجاز الأعمال والتمارين والتقارير وكتابة الدروس عن طريق استثمار الحواسيب والأجهزة اللوحية، " فعندما يحصل كل طالب على جميع المواد عبر الإنترنت سيكون قادرا على معالجتها في الوقت المتاح والعمل بشكل تفاعلي، والتي ستزيل عمليا أي نتائج سلبية مترتبة على الغياب عن الجامعة"¹.

وإذا كان من الضروري التشديد على أن التعليم الرقمي بالرغم من أهميته البالغة، إلا أنه لا يملك أن يكون بديلا للتعليم النظامي، غير أنه قد يوفر عددا من الإمكانيات التي لم تكن متاحة من قبل، وخاصة إمكانية تلقي بعض المضامين دون الحاجة إلى الحضور الفعلي إلى المؤسسة الجامعية، ثم سهولة تواصل الطلبة فيما بينهم وتفاعلهم المثمر مع بعضهم من خلال منتديات النقاش ومختلف وسائط التواصل الاجتماعي، وأيضا سهولة التواصل مع الأساتذة الذين بإمكانهم تأطير الطلبة وتبوع أعمالهم وفحصها سواء من خلال تطبيقات التواصل الفورية أو عن طريق البريد الإلكتروني.

إن الطابع التزامني للتعليم التقليدي قد لا يتناسب مع بعض الطلبة ممن يحتاجون إلى زمن أطول من أجل التركيز والفهم والاستيعاب، ولهذا تتيح لهم الموارد الرقمية المتوفرة في منصات التعلم الرقمية المختلفة إمكانية الاشتغال على المادة المعرفية وتنظيمها وتخصيص وقت أطول لاستيعاب بعض المضامين الدراسية، والاستعانة إذا أمكن بمتخصصين يقدمون الإيضاحات والشروحات سواء في مواقع متخصصة أو بعض وسائط التواصل الاجتماعي، كما تمكن الموارد الرقمية بعض الطلبة من استيعاب أفضل وتحكم أكبر من المادة المعرفية، لاسيما إذا كانت تتوفر فيها معايير التنظيم المحكم والتنسيق الجيد، الذي يركز على العناصر الهامة، وقد يجد بعض الطلبة ضالهم في التعليم الرقمي خصوصا أولئك الذين يجدون صعوبات في التواصل المباشر والحضوري مع

¹ Machekhina, O. Digitalization of Education as a Trend of its Modernization and Reforming , Revista ESPACIOS, 38 (40), (2017), p27.

الأستاذ أو الطلبة، إذ يمكنهم هذا النمط من التعليم من المشاركة والنقاش والتفاعل دون "خوف" أو "خجل" أو "قلق"، وهكذا تسهم تكنولوجيا التعليم في تفريق التعلّات بما يتناسب مع خصائص المتعلم ووتيرة تعلمه. لقد أسهم تطور تكنولوجيا التعليم اليوم في توفير قاعدة من المنصات التعليمية الرقمية التي تتيح من جهة أخرى، إمكانية إجراء بعض الاختبارات والتقييمات إلكترونياً، كما توفر أدوات لتحليل نتائجها ودراستها وذلك من أجل وضع خطط الدعم المناسبة، وهذا الخيار قد يكون مناسباً جداً بالنسبة لبعض الحالات التي يتعذر عليها الحضور الفعلي - الدائم أو الظرفي - من أجل اجتياز التقييمات الإشهادية.

قد تكون تكنولوجيا التعليم كذلك حلاً لبعض المشكلات التي لا زال يتخبط فيها التعليم العالي في بعض البلدان النامية، خاصة مشكل العرض التربوي الجامعي سواء أعلق الأمر باختلال التوزيع المجالي للمؤسسات الجامعية على امتداد التراب الوطني، أم بمشكل الازدحام في المدرجات والفصول الجامعية، وهكذا يمكن للطلاب متابعة تعلماته من خلال استثمار الشبكات الإلكترونية أو المنصات التعليمية المتخصصة، وهو ما يطرح كذلك تحدي توفير الشروط التربوية والإلكترونية والإدارية اللازمة من أجل نجاح هذا الخيار التربوي. إن التعليم الرقمي من المداخل الأساسية التي من شأنها إصلاح التعليم التقليدي وتجديد الممارسة التربوية من خلال إمكانات التكوين التي يتيحها لساكنة ما فتئت تزداد تعداداً وتنوعاً، ذلك أن التكنولوجيات بإمكانها "أن تحسن من عمليات التدريس والتعليم، عبر تسهيل إصلاح الأنماط التعليمية التقليدية، وتحسين نوعية النتائج والتعلم، والمساعدة على اكتساب الكفاءات النوعية، ودعم التعلم مدى الحياة life long learning وتحسين التدبير المؤسسي"¹.

بيد أن الاستفادة من كل الإمكانيات الهائلة التي تتيحها تكنولوجيا التعليم اليوم يستدعي تجديداً على مستوى الرؤية الناظمة الثابوية خلف مشاريع استنابات التعلم الرقمي في المنظومات التربوية للدول النامية، ذلك أنه لا ينبغي النظر إليه بوصفه وسيلة لتيسير نقل المضامين والمحتويات التعليمية إلى الطلبة فحسب، وهو الأمر يجعل العملية برمتها لا تعدو أن تكون استبدالاً للقنوات التقليدية في التلقين والتدريس بقنوات

¹ المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، تقرير بعنوان: المدرسة التكنولوجيات الجديدة والرهانات الثقافية، المغرب، سنة 2014، ص 65.

"حديثة" تتكى على منجزات تكنولوجيا المعلومات، بل المطلوب اليوم تطوير المنظومات التربوية بأن تستدمج تكنولوجيا التعليم بوصفها بيئة جديدة للتعليم والتكوين، لا مجرد أدوات تعوض الأدوات التقليدية المستخدمة في التعلم، كأن يتم تعويض القلم بالحاسوب، والكتاب باللوحة الإلكترونية، والدرس الحضوري بدرس يُلقى عن بعد عن طريق تطبيق إلكتروني أو منصة للتعلم.

3.3 نحو تعليم رقمي فعال يسهم في تحقيق الجودة

تحقق رقمنة التعليم عددا من الفوائد سواء بالنسبة للطالب أو الأستاذ أو العملية التعليمية برمتها، لكنها في النهاية ليست إلا تحسينا وتيسيرا لها في أفضل الأحوال، في حين أن التحول إلى تعليم رقمي فعال يستلزم النأي عن اعتبار تكنولوجيا التعليم مجرد أدوات مُعينة على التعليم أو التعلم، بل مسارا تعليميا مُنتجا للمعرفة وللفكر النقدي؛ مسار يتأسس على التناغم بين مكونات الفعل البيداغوجي (الأستاذ/الطالب/المعرفة) وتكنولوجيا التعليم، بما يحقق التواصل والتفاعل المثمرين ويعزز الاستقلالية الذاتية للمتعلم.

ولعل استخدام الرقمنة في الحقل التربوي في البداية بوصفها آليات لتعويض الطرق والأساليب والأدوات القديمة هو أمر طبيعي، ذلك أن التعامل مع المخترعات الحديثة يتوخى في العادة تيسير المهام الاعتيادية، فقد ذكر "مارشال مكلوهان (1995) بأن محتوى أية بيئة جديدة يكون دائما في بداية الأمر نفس محتوى البيئة القديمة، ولذلك كان أول استخدام للسينما في تسجيل المسرحيات، وأول استخدام للإنترنت كان في البريد الإلكتروني، وكذلك فإن أول استخدام للشبكة في الحقل التعليمي كان في نشر المادة التعليمية (المحاضرات) واستبدالها بالمناهج الورقية"¹.

وتقوم المحاضرات، وهي الطريقة التدريسية الشائعة في جامعاتنا المغربية بالخصوص، أساسا على نقل المعلومات والمعارف والمضامين إلى المتلقي (الطالب) بشكل عمودي، دون أن يكون لهذا المتعلم في أغلب الأحيان دور بارز سواء من خلال الإسهام في بناء الحصاة أو التفاعل النقدي مع ما يعرض عليه، باستثناء بعض الأساتذة ممن تتسع صدورهم للاستفسار أو التفاعل أو النقاش، وهؤلاء إن وُجدوا، فهم لا يمثلون إلا حالات نادرة تؤكد

¹ غاريسون در، أندرسون تيري، التعلم الإلكتروني في القرن الحادي والعشرين، إطار عمل للبحث والتطبيق، نقله إلى العربية محمد رضوان الأبرش، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة 1427 هـ/ 2006 م ص 34.

الصبغة التقليدية التي لا زالت تطبع الممارسة التعليمية في التعليم العالي المغربي خصوصا وفي الدول النامية على وجه العموم.

ولأن البيئة الجديدة في البدء تصطبغ في الغالب بسمات البيئة القديمة نفسها ، فقد أعادت المقاربات المعتمدة في رقمنة التعليم العالي إنتاج الممارسات البيداغوجية نفسها، والمتمثلة في اعتماد أسلوب المحاضرة العمودي المباشر بالرغم من تغير ظروف الممارسة التربوية وأدواتها، ونعني بذلك الانتقال من التعليم الحضوري في المدرج أو الفصل إلى تعليم عن بعد يستثمر المستحدثات الجديدة في تكنولوجيا التعليم.

إن أسلوب المحاضرة التقليدي في التعليم العالي وفق الباحثين غاريسون Garisson وأندرسون Andersson يفتقد لبعد التفاعل أو الخطاب النقدي، الذي يسمح "بمشاركة الطلاب في وضع الأهداف واختيار المحتوى التعليمي، ويتطلب قدرة قوية على الحكم مهنيا على الأشياء، ولاسيما بوجود نوع من الاستقلال والحرية اللذين يمثلهما التعلم الإلكتروني"¹، ويُلاحظ هنا التركيز على مفهوم المشاركة الذي بغيابه تغيب الفاعلية والفعالية ويحضر الاستئثار والتسلط المعرفيين الذي لم يعد موائما لا لخصوصيات العصر ولا البنية الذهنية لشباب اليوم، ثم إن الحديث عن إسهام الطلبة في وضع الأهداف واختيار المحتويات التعليمية يحيل على أهمية مراعاة احتياجات الطلبة واستحضار متطلباتهم المعرفية والمهارية، والتي ترتبط في غالب الأحيان بمتطلبات سوق الشغل وحاجيات المجتمع.

يدل الإصرار على تبني صبغ عمودية تقليدية في التدريس - سواء حضوريا أو إلكترونيا - على أمرين اثنين؛ يرتبط أولهما في تصورنا بعدم القدرة على الخروج من شرنقة بنية ذهنية لا ترى ضرورة أو أهمية لمشاركة الآخر (الطالب) في بناء السيرورة المعرفية أو على الأقل التفاعل مع إشكالاتها وقضاياها، أما ثانيهما فيتعلق بعجز في التصور والتنزيل مرتبط بالغاية من توظيف الآليات الرقمية الجديدة في حقل التعليم والتكوين، ذلك أن استثمارها من أجل الحصول على المعارف والمعلومات فحسب لن يسهم في تطوير العملية التعليمية وتحسين جودة مخرجاتها، وقد أشار غاريسون وأندرسون إلى هذا الأمر، إذ يعتبران أن "معظم الأبحاث التي بحثت في

¹ المرجع نفسه، ص 49.

استخدام التقنية لأهداف تعليمية لم تثبت فوراً جوهرية بين نتائج التعلم باستخدام الوسائل التقليدية أو الوسائل المتطورة تقنياً¹، ولهذا فتغيير قناة التواصل مع الطلبة دون الإقدام على تغييرات جوهرية على مستوى المقاربات البيداغوجية المعتمدة لن يسفر إلا على تيسير للوصول إلى المعرفة، لا يرقى إلا مفهوم التعلم الإلكتروني بما هو منظومة للتواصل والتفاعل الموصولين إلى اكتساب القدرة على بناء المعرفة وعلى الإبداع والبحث والتعلم المستمر.

لم يعد التحدي اليوم الحصول على المعلومات، وإنما صار هذا الأمر متاحاً في كل آن وحين، وبوفرة هائلة قد يستحيل معها الإلمام بكافة جوانب المبحث أو الموضوع أو القضية المبحوث عنها، بل ظهرت مؤخراً تطبيقات حديثة للذكاء الاصطناعي تتسم بالقدرة على التفاعل مع السائل أو "الباحث" واستيعاب المطلوب بدقة أكبر وصياغته في نصوص سلمية نسبياً، وهو الأمر الذي قد يكون له تبعات سلبية على جودة التعليم والتكوين وكذا الأمانة العلمية، وذلك باعتبار الإمكانيات القوية التي يتيحها هذا الذكاء الاصطناعي، وهو ما قد يدفع الطلبة إلى استثماره بصورة سيئة تؤثر سلباً على تكوينهم المعرفي وتمس بالأمانة العلمية بوصفها أهم ركائز البحث العلمي الرصين.

إن التحدي الأكبر اليوم لا يكمن في تطوير ظاهري وسطي لممارسة تعليمية عتيقة وتقليدية في جوهرها، بل في تطوير نموذج تعليمي يتسم بتناغم على مستوى الأسلوب والجوهر، نموذج يؤسس لتفاعل نقدي يؤدي إلى اكتساب القدرة على التعلم، وذلك عن طريق صياغة بيئة تعلمية لا تركز فقط على المحتوى فحسب، بل على تمرير الطرق والكيفيات التي من خلالها يستطيع المتعلم تحليل هذا الكم الهائل من المعارف وتنظيمها والاستفادة، أي بصيغة أخرى التركيز على أساليب التعلم والبحث وكذا القدرات المتعلقة بالتحليل والنقد، وبهذا يسهم التعلم الإلكتروني بقسط وافر في تفوق الطلبة دراسياً وفي تيسير اندماجهم المهني في سوق الشغل، التي صار الولوج إليها يقتضي التمكن من الآليات والأدوات الإلكترونية الحديثة.

¹ غاريسون در ، أندرسون تيري، التعلم الإلكتروني في القرن الحادي والعشرين، إطار عمل للبحث والتطبيق، مرجع سابق، ص 31.

ولعل هذا هو المبتغى من التكوين الجامعي، الذي لا يرنو إلى نقل المعارف إلى الطالب فحسب، بل إكسابه القدرة على البحث والتعلم الذاتيين، ذلك أن النتيجة المبتغاة من التعليم وفق غاريسون وأندرسون هي "بناء بني مترابطة للمعرفة تلائم عملية التعلم وليس مجرد استيعاب أجزاء مجزأة من المعلومات، أي لا بد من إعداد الطلاب للتعلم بشكل مستمر، وهو الأمر الذي أصبح الصفة المميزة لعصر المعرفة"¹.

ولئن كانت إمكانيات التعلم الإلكتروني هائلة ومتعددة، فإنه قادر على الإسهام في بناء الشخصية المعرفية للطلاب وتمكينه من كل الأدوات الكفيلة بجعله قادراً على تطوير الذات والتعلم مدى الحياة، وذلك لما يتيح هذا النمط من التعلم من إمكانات التعلم المتزامن وغير المتزامن، وذلك من خلال منصات تعليمية مؤسسية أو عامة، أو بفضل التواصل بين الطلبة والأساتذة عن طريق وسائل اتصال نصية وسمعية بصرية، وهو الأمر الذي من شأنه تعزيز النقاشات الأكاديمية المثمرة والرفع من فرص الاستفادة البينية، وذلك بما يحسن من جودة التعليم العالي.

إن استنبات منظومة تعليم إلكتروني فعال تسهم في الرفع من جودة التعليم العالي بالدول النامية، يقتضي تهيئة ظروف وشروط نجاح هذا المشروع البيداغوجي الكبير، وقد أشار في هذا الصدد الباحث خميس محمد عطية في كتابه عمليات تكنولوجيا التعليم إلى ما يسميه متطلبات التعليم الإلكتروني، ونجملها بتصنيف فيما يلي:

1. دراسة مواصفات التعلم الإلكتروني: وتحديد خصائصه وإمكاناته وفوائده وأهدافه، والمشكلات التي يسهم في حلها وحدوده ومعوقاته وإجراءات توظيفه وتنفيذه.
2. دراسة جدوى توظيف التعلم الإلكتروني: وذلك للتأكد من العائد الاقتصادي والتعليمي له كمستحدث بالمقارنة بالطرائق التقليدية، أو بغيره من المستحدثات المماثلة ويتم ذلك قبل البدء في التخطيط لطي نوفر الوقت والجهد والمال إذا أثبتت الدراسة عدم جدواه.

¹ المرجع نفسه، ص 40.

3. التخطيط الصحيح لتوظيف التعلم الإلكتروني: بحيث يكون شاملا لجميع العوامل التي تؤثر في التعلم الإلكتروني، كما يشمل وضع خطة تطبيقه على مراحل متدرجة وان يتضمن إشراك المعلمين، وكل من يهمهم الأمر في كل خطواته.

4. توفير المناخ لتوظيف التعلم الإلكتروني: بمعنى تهيئة بنية النظام التعليمي القائم، وتغيير ما يلزم لقبول التعلم الإلكتروني، ووضع قواعد وأسس توظيفه والاستفادة منه، ورصد التمويل اللازم لتوظيف التعلم الإلكتروني.

5. توفير الكفاءات البشرية التي يحتاجها توظيف التعلم الإلكتروني: وهم الأفراد الذين لديهم الخبرات والمهارات اللازمة لتطبيق المشروع وإدارته، وتوفير المتطلبات المادية اللازمة لتوظيف التعلم الإلكتروني؛ وتشمل البنية التحتية من أماكن وأثاثات وتجهيزات، وكل الأجهزة اللازمة للمؤسسة التعليمية.

6. تجريب التعلم الإلكتروني قبل البدء من تطبيقه وتنفيذه ويتم ذلك على مراحل متعددة، تبدأ بالتجريب المصغر على عينات صغيرة، ثم التجريب الموسع على عينات أكبر، والاستفادة من نتائج التجارب السابقة في المؤسسات التعليمية وإجراء التعديل والتطوير والتنقيح اللازم.

7. التدريب: ويشمل تدريب أفراد تطبيق التعلم الإلكتروني والقائمين على إدارته والمعلمين وغيرهم، وذلك قبل التطبيق وفي أثنائه، من خلال برامج الإعداد، والدورات التدريبية القصيرة والمكثفة والمتكررة، على أن تكون هذه التدريبات كافية وفعالة، وتتضمن موضوعات نظرية وعملية ويقوم بها خبراء و متخصصون.

وتشير الباحثة حياة قزادري من جهتها إلى شروط تحقيق الجودة في التعليم الإلكتروني ، والتي تصنفها إلى شروط تعليمية مرتبطة بالأهداف التعليمية والمحتوى التعليمي، وشروط أخرى مرتبطة بتقنية التكنولوجيا، ثم شروط تعليمية مرتبطة بالأهداف التعليمية والمحتوى التعليمي، وتتمثل هذه الشروط باقتضاب في: تصميم المؤسسات التعليمية الجامعية لمنظومة متكاملة للتعليم الإلكتروني وتوفير الميزانية اللازمة لذلك، ثم مراعاة معايير الجودة في مختلف مراحل تصميم البرامج والمقرر الإلكتروني، وكذا إدارة برامج التعليم الإلكتروني وفقا لمعايير الجودة، ودعم التعليم الذاتي وتمكين الطلبة من التحكم في نمو مستواهم التعليمي، ثم مراجعة سلامة إجراءات التقييم المستخدمة في برامج التعليم الإلكتروني، فضلا عن شروط تقنية أخرى مرتبطة بالدعم

التقني والتدريب على استخدام الأدوات التكنولوجية، وكذا توفير المكتبات الإلكترونية والكتب العلمية والمعبرة عن المعلومات الموثوق بها، وخدمات استشارية إدارية لمعالجة مختلف الصعوبات التي يمكن أن تنشأ خلال عملية التعليم وإيجاد الحلول لها¹.

إن أي توجه لإقرار تعليم إلكتروني لن يكون ذا أثر على الجودة إذا لم يتم الاشتغال على تحقق شروط أساسية تتصل أساسا بالبنية التحتية اللازمة لتفعيل التعليم الإلكتروني من قبيل تجهيز المؤسسات التعليمية بخدمات الإنترنت ومدتها بالحواسيب وتيسير حصول الطلبة عليها، ثم إعداد المنصات التعليمية والبرامج والتطبيقات التربوية، ولا يمكن تصور نجاح التعلم والتعليم الإلكترونيين دون انخراط فاعل للطلبة في التواصل البيئي والنقاش الأكاديمي، مع ما يقتضيه ذلك من انفتاح على مختلف الشركاء الاقتصاديين والمهنيين وغيرهم، ثم توفير البرامج التكوينية والتدريبية للأساتذة والطلبة، لتمكينهم من القدرة على استخدام المنصات التعليمية ومختلف الأدوات الإلكترونية الكفيلة بالارتقاء بالفعل التعلُّمي، ومن شروط نجاح التعليم الإلكتروني كذلك القيام بالتقييمات اللازمة بصورة دورية للوقوف على مدى استفادة الطلبة من إمكانيات هذا النمط التعلُّمي الحديث، وكذا استجلاء مواطن الخلل من أجل معالجتها، ثم تمكين الطلبة من المواكبة التربوية والدعم التقني.

خاتمة :

لقد أضحى استثمار الرقمنة بكل ما تتيحه من إمكانيات تكنولوجية هائلة، بالنسبة للدول النامية ومن بينها المغرب على سبيل المثال، مدخلا أساسيا لتحقيق الجودة والرفع من الإنتاجية في كل القطاعات الاجتماعية والإنتاجية عموما، وفي التعليم العالي على وجه الخصوص، وهذا ما يؤكد عليه تقرير صادر عن مؤسسة دستورية مغربية، وهي المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، ورد فيه أن " الرقمنة تُعدُّ رافعةً حقيقيةً

¹ قزادري حياة، ضوابط ومعايير الجودة في التعليم الإلكتروني، مجلة التعليم عن بعد والتعليم المفتوح، مجلد 7، عدد 13، ديسمبر 2019، جامعة بني سويف، ص 139-140.

لتحقيق التحول وتسريع وتيرة التطور، وتساهم في الارتقاء بجودة التفاعل بين المرتفقين والإدارات، والرفع من الإنتاجية وتعزيز تنافسية الاقتصاد المغربي وتقليص الفوارق الاجتماعية والمجالية¹.

إن هذا التوجه إلى تعميم الرقمنة واستثمار إمكانيات الذكاء الاصطناعي، الذي يفصح عنه هذا التقرير لا يخص المغرب فقط، بل هو مسار انخرطت فيه العديد من البلدان التي تشكلت لديها فناعة بأهمية الرفع من القدرات وتجويد الموارد، من خلال توظيف تكنولوجيات الذكاء الاصطناعي، حيث شرعت في تخصيص ميزانيات ضخمة في هذا المجال: المملكة العربية السعودية (20 مليار دولار بحلول 2030) وألمانيا (3 مليار يورو بحلول 2025) والدنمارك (160 مليون دولار بحلول 2025)².

ولعل هذا التوجه إلى تعزيز التحول الرقمي في التعليم العالي – وهو الميدان الذي يهمننا بالدرجة الأولى – يجد مرجعه بالأساس في الفرص الهائلة التي يتيحها التعلم الإلكتروني من أجل تحسين جودة العملية التعليمية ومسار البحث والتكوين، وذلك من خلال تعزيز التفاعل بين الطلبة والمدرسين عن طريق استخدام تطبيقات التواصل ومنتديات النقاش والتطبيقات المتخصصة في التعليم الرقمي التي تتيح إنشاء فصول دراسية افتراضية، كما تتيح الرقمنة من جهة أخرى تيسير الوصول إلى المصادر التعليمية والمراجع المعرفية المختلفة بسلاسة وسهولة، إذ تمكن شبكة الإنترنت عموم المستخدمين والطلبة على وجه الخصوص من الحصول على عدد من الكتب والمقالات الأكاديمية والأشرطة التعليمية في كافة المجالات والحقول المعرفية، هذه المصادر الرقمية التي من شأنها تقديم السند والعون للطلاب، قد تكون كذلك من بين أهم سبل استكمال التعلم وسد الثغرات المعرفية ومواصلة التعلم مدى الحياة.

قد يكون من الصعب حصر الآثار الإيجابية المتعددة للتعلم الإلكتروني، لكن يمكن القول إنه خيار استراتيجي يوفر إمكانيات هائلة للرفع من جودة التعليم العالي سواء على مستوى البحث والتكوين، أو تعزيز فرص التعلم الذاتي والتعلم مدى الحياة وتحقيق الاستقلالية، لكنه يطرح تحديات كثيرة متعلقة بالبنية التحتية والذهنية الثقافية والتدريب، ثم جوانب أخلاقية ومعرفية مرتبطة بالأصالة والأمانة العلمية، وهذا ما

¹ المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي بالمغرب، رأي تحت عنوان "نحو تحول رقمي مسؤول ومدمج"، ص 9.

² المرجع نفسه، ص 17.

يقتضي استثمار الآليات الإلكترونية لرصد وتتبع الانتحال والسرقة الأدبية، وذلك بالموازاة مع التكوين الأكاديمي الذي يستدمج أبعاد الأمانة وأخلاقيات البحث العلمي الرصين، إلى جانب الأبعاد الأخرى المتعلقة بالمادة المعرفية والمقاربات والمناهج العلمية.

قائمة المصادر والمراجع :

❖ باللغة العربية :

- أحمد مختار عبد الحميد وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط.1، ج 1، سنة 2008.
- ألطف إياد، اثر التعلم الرقمي باستخدام الأجهزة الذكية، مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والنفسية، المجلد 10، عدد 3، أبريل 2019.
- الأمين عدنان، قضايا النوعية في مؤسسات التعليم العالي في البلدان العربية، الكتاب السنوي الثامن للهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، بيروت لبنان، سنة 2014.
- بلحياح حسن، رهانات التعليم عن بعد في المغرب، ضمن الدليل المعرفي لجائحة كوفيد - المعرفة والابتكار والخبرة في مواجهة وباء كوفيد، منشورات جامعة محمد الخامس بالرباط، 18 ذو القعدة 1441 هـ، الموافق 10 يوليو 2020 .
- الجبلي سوسن شاكر، معايير الجودة الشاملة في الجامعات العربية، مؤتمر العلوم التربوية والنفسية تجديداً وتطبيقات مستقبلية، جامعة اليرموك بغداد، 22 - 23 تشرين الثاني، سنة 2005 .
- أبو زيد عبد الباقي عبد المنعم، معوقات تكنولوجيا المعلومات والاتصال في مناهج المواد التجارية بالتعليم الثانوي، المؤتمر الدولي الأول حول استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال لتطوير التعليم قبل الجامعي، مصر، سنة 2007 .
- سلامة رمزي، ضمان الجودة في الجامعات العربية، بيروت: الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، سنة 2005.

- سوسن شاكر مجيد ومحمد عواد الزيادات، الجودة في التّعليم: دراسات تطبيقية، عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 2008.
- طعيمة رشدي أحمد، الجودة الشاملة في التعليم بين مؤشرات التمييز ومعايير الاعتماد، الأسس والتطبيقات، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، ط.1، سنة 2006.
- العزاوي محمد عبد الوهاب، إدارة الجودة الشاملة، دار اليازوري للنشر والتوزيع، عمان، سنة 2005.
- عليّات صالح ناصر، إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات التربوية – التطبيق ومقترحات التطوير، دار الشروق، عمان، ط.1، سنة 2004
- غاريسون در، أندرسون تيري، التعلّم الإلكتروني في القرن الحادي والعشرين، إطار عمل للبحث والتطبيق، نقله إلى العربية محمد رضوان الأبرش، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة 1427 هـ / 2006 م
- أبو فارة يوسف أحمد، واقع تطبيقات إدارة الجودة الشاملة في الجامعات الفلسطينية، المجلة الأردنية في إدارة الأعمال، المجلد الثاني، سنة 2006
- قادري حليلة ونصيرة بن نابي، إشكالية جودة التكوين في نظام ل.م.د من خلال تطبيق المرافقة البيداغوجية للطالب الجامعي، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 23، جوان 2017
- قزادري حياة، ضوابط ومعايير الجودة في التعليم الإلكتروني، مجلة التعليم عن بعد والتعليم المفتوح، جامعة بني سويف، مجلد 7، عدد 13، ديسمبر 2019
- المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي بالمغرب:
 - ✓ رأي تحت عنوان "نحو تحول رقمي مسؤول ومدمج"، إحالة ذاتية رقم 2021\52، سنة 2021.
 - ✓ تقرير بعنوان: المدرسة التكنولوجيات الجديدة والرهانات الثقافية، المغرب، سنة 2014.

■ محمد فتحي عبد الهادي، رقمنة الدوريات العربية - مشروع رقمنة الدوريات بدار الكتب المصرية نموذجاً، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مجلد 17، عدد 2، نوفمبر 2011.

■ ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط.3، سنة 1414 هـ، جزء: 3.

■ اليوسفي سعاد، الممارسات الفضلى للتعليم عن بعد والاستجابة التفاعلية للطلاب، ضمن الدليل المعرفي لجائحة كوفيد - المعرفة والابتكار والخبرة في مواجهة وباء كوفيد، منشورات جامعة محمد الخامس بالرباط، 18 ذو القعدة 1441 هـ، الموافق 10 يوليو 2020 .

❖ باللغات الأجنبية :

- DETRIE Philippe, Conduire une Démarche Qualité, Paris: éditions d'organisation, 4 ème édition, 1998/ 2001
- Cahier thématique: la qualité de l'enseignement supérieur au Québec, Bibliothèque et Archives nationales du Québec, mesrst
- Machekhina, O. Digitalization of Education as a Trend of its Modernization and Reforming , Revista ESPACIOS, 38 (40) (2017).
- Agence nationale d'éducation supérieur et de la recherche scientifique (MAROC, Critères de qualité – Révérenciel national d'évaluation et d'assurance qualité de l'enseignement supérieur, Janvier 2020 .

الظواهر النفسية والاجتماعية السلبية المؤثرة على النشاط العقلي " الخرافة والأسطورة نموذجاً"
"Negative psychological and social phenomena affecting mental activity" Myth and
Legend as an Example"

بروفيسور أبكر عبد البنات آدم / جامعة بحري، السودان

Prof Abaker Abdelbanat Adam / University of Bahri , Sudan

Abstract:

This study dealt with the negative psychological and social phenomena that affect mental activity. If we look closely at the commands and prohibitions, we find that they, in their entirety, came for the good of humanity. It is no secret that religion has psychological aspects that encourage people to bear calamities, withstand calamities, and interact with various cosmic phenomena, to achieve the purposes of legislation. Islamic. Those who deny the existence of God Almighty, and they are the ones who claim that nature is the one that created the universes, and it is the one that disposes of their affairs, so if they are afflicted with a calamity, they panic and panic, and they shake a great earthquake. The study came to correct some of the opinions that view religion as an increased burden on humanity, and claim that any religion can be a myth, myth, or magic, and that there is no relationship between religion and moral values. With the different philosophical schools, the imaginary perceptions of religion have become far from the realistic and logical perception. The study aimed to formulate objective and logical evidence that confirms the importance of religion as a social institution that no human association is without. The researcher used the descriptive analytical method to detect those phenomena that affect mental health.

Keywords: religion - psychological phenomena - belief - ethics - myth - superstition.

ملخص :

تناولت هذه الدراسة الظواهر النفسية والاجتماعية السلبية المؤثرة على النشاط العقلي، فإذا أمعنا النظر في الأوامر والنواهي نجد أنها في جملتها جاءت لخير البشرية، ولا يخفى أن للدين نواحي نفسية تشجع الإنسان على احتمال المصائب والصمود في النكبات، والتفاعل مع الظواهر الكونية المختلفة، لتحقيق مقاصد التشريع الإسلامي، فالذين ينكرون وجود الله عزّ وجلّ، وهم الذين يزعمون أن الطبيعة هي التي أوجدت الأكوان، وهي التي تتصرف في شؤونهم، فإذا ما أصيبوا بمصيبة جزعوا واضطربوا، وزلزلوا زلزالاً كبيراً، وقد جاءت الدراسة لتصويب بعض الآراء الذين ينظرون للدين بأنه زيادة عبء على الإنسانية، ويدعون بأن أي الدين يمكن أن يكون خرافة أو أسطورة أو سحر وليس هنالك علاقة بين الدين والقيم الأخلاقية، ومع اختلاف المدارس الفلسفية فإن التصورات الخيالية عن الدين قد باتت بعيداً عن التصور الواقعي والمنطقي، وقد هدفت الدراسة إلى صياغة الأدلة الموضوعية والمنطقية التي تؤكد أهمية الدين كمؤسسة اجتماعية التي لا تخلو أية جمعية بشرية عنها، استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي للكشف عن تلك الظواهر التي تؤثر على الصحة النفسية.

الكلمات المفتاحية: الدين- الظواهر النفسية- العقيدة- الأخلاق- الأسطورة- الخرافة.

مقدمة :

من السنن الكونية التي لا مناص منها هي أن فكرة التدين صفة متأصلة في النفس الإنسانية منذ نشأتها الأولى، وتختلف هذه النزعة باختلاف البيئة والثقافة والحضارة التي تسود في كل مجتمع، إذ إن التعاليم الدينية واضحة في هذا المجال، فالإنسان ابن بيئته فمتى ما كانت البيئة صالحة يصلح الإنسان ولا شك في أن المعتقدات الدينية التقليدية تلعب دوراً متعاضداً في تقويم سلوك الفرد في كثير من المجتمعات اليوم، خاصة في الجوانب السيكلوجية التي ترتبط بالمسؤولية الاجتماعية والانتماء الديني والالتزام الأخلاقي، فالتقوى التلقائي تدل على قوة الناحية الروحية والمادية معاً، فالدين مؤسسة اجتماعية لا تستغني عنها أية جماعة بشرية مهما كانت بدائية أو متحضرة، وقد دلت بعض الدراسات الفسيولوجية والأنثروبولوجية على أن البشر

حتى في أدوار ما قبل التاريخ كانوا متأثرين بفكرة التدين إلى أن جاءت الرسائل السماوية، فأصبح الدين من أكبر المؤسسات التي لا تضاهي قوتها كل المؤسسات الاجتماعية الأخرى.

مشكلة الدراسة: بالرغم من المسؤوليات المتعاظمة التي يجب أن يقوم بها المسلمون اليوم؛ وأن يبنيوا للعالم ما هو الإسلام الذي ارتضاه لعباده، وبيان أن الدين يجمع في طياته كل الجوانب الاجتماعية، والتربوية، والنفسية، والاقتصادية، والسياسية، والتشريع الكامل، والحكم ونظامه، والدولة وربطها بحاجة الفرد والأسرة والأمة والمجتمع، إلا أن هنالك من يعيب في مفهوم الدين، ويدعوا إلى علمنة الدين بحجج واهية لا يمد للإيمان بصلة، مما دعا ضعاف النفوس إلى الإذعان في الخرافات والأساطير والسحر وغيرها.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة في تحقيق حتمية الدين في حياة الإنسان من خلال بناء قيم المجتمع، وممارسة الشعائر التعبديّة على نحو يحقق بناء العلاقة بين العبد وربّه بعيداً عن النوازع السيكولوجية والأنثروبولوجية.

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى تحقيق الآتي:

1. الإمام بأن للدين والتدين مكانة سامية في نفسية كل من يستطيع إعمال عقله نحو سبيل الرشاد.
 2. الكشف عن خطورة الانحراف نحو الخرافات والأساطير.
 3. التأكيد بأن من السنن الكونية أن يولد الإنسان على الفطرة الطبيعية.
- أسئلة الدراسة: تنطلق أسئلة الدراسة من السؤال الرئيسي: هل هنالك علاقة بين الظواهر السيكولوجية الاجتماعية والمعتقدات التقليدية المحلية؟ ومنها:

1. كيف يمكن تصور الظواهر النفسية والاجتماعية في حياة الفرد والجماعية؟
2. ما علاقة الظواهر النفسية بالخيالات والخرافات؟
3. إلى مدى يمكن تأثير الظواهر النفسية السلبية على فكرة الدين والتدين؟
4. هل للمعتقدات الدينية التقليدية علاقة بالظواهر النفسية؟

فروض الدراسة: تنبع فروض الدراسة من الأسئلة الرئيسية، وهي على النحو الآتي:

1. هنالك تصور خيالي بأن الظواهر النفسية علاقة وثيقة بحياة الفرد والجماعية.

2. ترتبط بعض العلاقات الاجتماعية بالخرافات والأساطير.

3. للأساطير والخرافات دور كبير في كثير من البيئات الاجتماعية.

منهج الدراسة: استخدم الباحث المنهج الوصفي والتحليلي لمعرفة أثر الاعتقاد بالخرافات والأساطير على

حياة الإنسان.

المبحث الأول: مفهوم الدين

الدين لغة: للدين في اللغة معانٍ عديدة ومتشعبة حتى يبدو وكأنه يستعمل في معاني متباينة بل متناقضة، فالدين هو الملك والخدمة والقهر والذل والإكراه والإحسان والعادة والعبادة والسلطان والخضوع والإسلام والتوحيد¹، وهو اسم لكل ما يُعتقد أو لكل ما يتعبد به، وتبعاً لهذا التباين والاختلاف في تحديد معنى الدين لغةً أثبت مسألة عدم أصالة هذه الكلمة في اللغة العربية، وأنها دخيلة مقارنة باللغات الأخرى كالعبرية أو الفارسية²، والمتصّح في اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تصريفها يستشف من هذا الاختلاف الظاهر تقارباً شديداً، بل توافقاً وانسجاماً في جوهر المعنى، إذ يجد أن تنوع هذه المعاني مرده إلى ثلاثة مضامين تكاد تكون متصلة باعتبار أن الكلمة التي يُراد شرحها ليست كلمة واحدة، بل ثلاث كلمات، أو بعبارة أدق إنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب فكلمة الدين تأتي مرة من فعل متعدي بنفسه: دانه يدينه، وأحياناً من فعل متعدٍ باللام: دان له، وتارة من فعلٍ متعدٍ بالباء: دان به، وباختلاف الاشتقاق يختلف المضمون³، وتأكيداً على هذه المعاني اللغوية فإن كلمة الدين تتضمن علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمراً وسلطاناً، وحكماً وإلزاماً، وإذا وُصف بها إلى طبيعة العلاقة بين الطرفين كانت هي الطريقة المنظمة لتلك العلاقة أو الشكل الذي يمثلها، لذلك فإن محاولة تحديد

¹- ابن منظور(1988م)، لسان العرب. تحقيق عبد الله علي وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط2ج2، ص178.

²- ابن فارس، حمد (1399هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ط2، ص150.

³- دراز، محمد عبد الله(1970م). الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط2، ص17.

مفهوم الدين لغة يضعنا أمام مجموعة مرادفات تصبُّ بشكل أو بآخر في الاتجاه نفسه، والذي ينصب حول لزوم الانقياد ففي الاستعمال الأول هو إلزام الانقياد، وفي الاستعمال الثاني هو التزام الانقياد، وفي الاستعمال الثالث هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له، ومع تلك التحليلات، يرى عبد الله دراز بأن هنالك عدم توافق بين المعنى اللغوي، والمعنى العرفي ليس كل خضوع وانقياد يسمّى في العرف تديناً، فخضوع العبد لسيدته وطاعة الابن لأبيه وإكبار الخادم لمسؤوله لا يجسّد معنى الدين الذي نعنيه، كما أنه ليس كل اتجاه أو مذهب يسمى ديناً¹.

الدين اصطلاحاً: عرفه عبد الله دراز: "بأنه وضع الهي سائق لذوي العقول السليمة بإخبارهم في الحال والصلاح في المال"²، وهذا يشمل العقائد والأعمال وكل ما يعتنقه الإنسان ويعتقده ويدين به من أمور الغيب والشهادة، أو التسليم لله تعالى والانقياد إليه، كما عرفه طه الهاشمي: "بأنه هو الاعتقاد بوجود قوة أعظم يجب الانقياد إليه"³. فالدين هو ملة الإسلام الذي هو دين جميع المرسلين من لدن آدم ونوح إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيّاً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}⁴، وقال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}⁵، وقال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّدَةُ وَالنَّطِيطَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّيتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمِ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}⁶، غير أن هنالك من عرفه بأنه "الشرع الإلهي المتلقى عن طريق الوحي"⁷.

1- المصدر نفسه: 34.

2- المصدر نفسه: 70.

3- الهاشمي، طه (1963م)، تاريخ الأديان وفلسفتها، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، ص11.

4- آل عمران: 19.

5- آل عمران: 85.

6- المائدة: 3.

7- الأصفهاني، راغب (1373هـ)، المفردات في غريب القرآن، مكتبة دار العلم، القاهرة، ط1، ص220.

يطلق مصطلح الدين على مجموعة من الأفكار والعقائد التي توضح بحسب معتنقها الغاية من الحياة وتفسر علاقة البشر بالكون، فكلمة دين تستعمل أحياناً بشكل متبادل مع كلمة إيمان أو نظام أو اعتقاد ولكن الدين يختلف عن الاعتقاد الشخصي من ناحية أنه يتميز بالعمومية، حيث ينظم سلوك الإنسان فيجعله ملتزماً في ممارسة كافة شعائره التعبدية.

وقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقق الغاية من رسالة الإسلام بمثل ما أتى به الأنبياء والرسل السابقين، مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه، بأن جميع التشريعات الإلهية كلها تشريعات ربّانية سعت إلى تثبيت هذا المفهوم في قلوب المسلمين ليوعي المسلم حقيقة دينه ومداه ومستواه، فلا يأخذه الضعف أو الجهل أو يلهث وراء العلمانية والديمقراطية والحدّثة، فأحسن التبليغ لقوله صلى الله عليه وسلم: "مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً، فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان، ويعجبون منه، ويقولون: لو تمّ موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة"¹، فالدين من حيث الواقع والحقيقة والعقل، هو المنهج الربّاني الكامل الذي يبيّن مهمّة استخلاف الإنسان في الأرض، ليعرف كلُّ إنسان أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقه، وهو الذي كلّفه بمهمّة عظيمة يقوم بها في الدنيا، حتى تكون الطريق أمامه مشرقةً جليّةً، ممتدّة إلى الدار الآخرة، ولا يتأتى إلا إذا عاش المؤمن في هذه الحياة الدنيا مطمئنّاً راضياً واعياً لمهمته وتكاليفه الربّانية، فلا يُعقل أبداً أن يكون الدين طقوساً تؤدّي على صورة ما، تنفصل بعد ذلك عن واقع الحياة الدنيا وأحداثها وميادينها، ثمّ يصبح الإنسان بعد هذا الانفصال هو الذي يقرر، يعبد العقل حيناً، ويعبد الأهواء والشهوات، ويعبد المصالح المتضاربة المتنافسة، ويعبد الأوثان وما يوحى به شياطين الإنس والجن حيناً آخر، فالدين بهذا المفهوم هو منهج حياة ينظم عمل المؤمن الصادق لله عز وجل، ويقوم الحقّ والعدل والحرية المنضبطة لتحقيق المساواة العادلة بين الناس، فكثير من الناس غاب عنهم التصوّر السليم للدين، فاضطربت تصوّراتهم اضطراباً واسعاً، فمنهم من جعل من الدين معنّى للعبادة والطقوس والشعائر فقط، ومنهم من نادى بعزل الدين عن السياسة والحكم، أو عزل السياسة والحكم عن

الدين¹، ومثل هذه التصورات بدأت في الغرب على إثر اصطدام النصرانية بالوثنية، ثم اصطدام الكنيسة برجال العلم وبالدولة والحكام، ثم أخذت تمتد إلى العالم الإسلامي بين المسلمين، حين انتشر الجهل بالكتاب والسنة، فقويت دعاية الغرب عندما أطلق فكرة الغزو الفكري والثقافي، ومن أهم التصورات الدينية التي غابت عند الغربيون هو معرفة الإنسان لمهمته في الحياة، وما هي التكاليف الربانية التي أمره الله عز وجل الوفاء بها²، وقد أوجز سبحانه وتعالى مهمة الإنسان في الحياة الدنيا بمصطلحات أربع: العبادة والأمانة والخلافة والعمارة، فإنه مع هذا الإيجاز فصل كل مهمة تفصيلاً كاملاً، ثم جمعت المهمات كلها في نشر دين الله في الأرض ودعوة كافة الناس إليه، حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ومن أجل تحقيق تلك الغايات شرع الله القواعد والوسائل والأساليب وفصلها حتى يتيسر للإنسان فهم معنى الدين، وفهم تصوراتها، لقوله تعالى: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}³، فالدين بصفة عامة من أهم مكونات البعد الثقافي والحضاري لأي أمة، وتنطبق هذه الحقيقة أكثر ما تنطبق على الإسلام، كما أن مفهوم الدين وكيفية ممارسة شعائره هو ما يعبر عن المفهوم الحقيقي للانقياد والطاعة، أما إذا نظرنا للغرب لم يفقد الدين أهميته على المستوى الفردي أو الجماعي، ولكنه تحول خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلى اختيار شخصي أو ذاتي حتى المجتمع لا ينقاد إلى الاعتقاد الديني أو ممارسة شعائره إلا ما ندر، وهذا التحول لم يحدث بسهولة؛ ولكنه حدث بعد قرون طويلة من القهر والاستبداد والحروب من خلال الصراعات الدينية، ومحاكم التفتيش في إسبانيا وباقي دول أوروبا، والتي راح ضحيتها الكثير، ولكن أوروبا ومن خلال عصر التجربة والتنوير اكتشفت أنه مهما أهدرت من دماء فلن يغير شخص أو تغير جماعة عقيدتها الدينية، وأن الحل الأمثل يكمن في التعايش والحوار، وما إن غاب الحوار ظهر ما يعرف بفصل الدين عن الدولة فتحوّلت العلاقة بين الله و الإنسان إلى علاقة على المستوى الفردي دون أن يفقد الدين قيمته كحاجة إنسانية، ولعل أكثر فلاسفة الغرب الذين كان لهم أكبر الأثر في ذلك هو الفيلسوف الإنجليزي (جون لوك) الذي ذكر في كتابه (القيم) عن أهمية تسامح الإنسان مع

¹- كوتشون، راسل ماك (2001م)، الدين، مؤلفات جامعة نيويورك، ط1، ص13.

²- الطويل، توفيق (1964م)، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى، دار العلم، بيروت، ط3، ص33.

³- الأنعام:122.

ربه، ولكن من خلال النظرة الضيقة للدين أصبح من حق الإنسان في الغرب أن يكون مسيحياً بروتستانياً أو كاثوليكياً أو مسلماً سنياً أو شيعياً، أو حتى بلا دين على الإطلاق، ومن حقه أن يذهب إلى الكنيسة أو لا يذهب، وليس من حق المجتمع أن يضطهد أي شخص بناءً على معتقداته الدينية أو ممارسته للشعائر، وعلى المجتمع أن يحترم حق الفرد والجماعة في الدعاية لمعتقداته طالما لا يمارس العنف أو التحريض في هذه الدعاية¹.

ومن ناحية أخرى فإن دراسة الدين كصيورة اجتماعية يُمكن الإنسان من فهم أنماط التدين الاجتماعية على ضوء فهم الدين كعملية تمايز للمقدس وغير المقدس؛ فنصوص الدين تجعل الذات الإلهية متعالية ومتباينة للعالم الوجودي كله، ولكن بمرور الوقت تشكلت في المخيال هوة هائلة بين المتعالي والديني، ولهذا يميل كثير من الباحثين إلى دراسة الدين من خلال فهم التمايز الذي يجعل للتدين قيمة إضافية²، فإذا كان الدين ببنيته العقدية يميز بين الوجود الديني والوجود الأخرى؛ فإن التدين يشكل القلب الديني، بصفاته وأحكامه لا بذاته، أما في الأديان الأخرى فالوضع مختلف لأن قاعدة الإيمان عندهم لا تخلق التمييز بين الإله والديني؛ فالتجسيد أي حلول الإله في جسد الآدمي، هو حضور للمتعالى مباشرة في العيني، وعلى منوالها وجدت مذاهب وتيارات تقول بالحلول والاتحاد، كمذهب وحدة الوجود الذي فيه وحدة تامة للموجودات كلها، لكن من يعتمد الفصل، فإنه يضطر إلى القول بالتوسط والواسطة، بمعنى أن هناك واسطة بين الإله والعالم تتمثل في النبوة أو الإلهام والوحي المتلقي، لذلك لا يمكن حصر أنماط التدين كافة، في صيغها التاريخية، وقد أكد بعض علماء النفس أن نشاطات الإنسان النفسية يمكن حصرها في ثلاثة جوانب: الجانب المعرفي الفكري، والجانب العاطفي الوجداني، والجانب المتعلق بالسلوك، وبالطبع ليس كل أنماط التدين دافعا خارجي؛ بل قد يكون لبعضها منشأ داخلي (ذاتي)، ومن المعلوم أن عموم الأديان لجميع الأمم لا يعني خضوع كل أفرادها لنزعة التدين فلا تخلو أمة من منكرين وساخرين يحسبون الحياة لعباً ولهواً، ويتخذون الدين وهماً وخرافة، لكن هؤلاء لا يشكلون إلا جزءاً قليلاً في كل أمة، وهم في الغالب من المترفين الذين لا يضعون للحياة قيمة ولا يدركون أن هنالك أزمات وتحديات قد تعوق مصير الإنسانية، وقد جاء في معجم (لاروس) للقرن العشرين: "إن

¹- جينو، رينيه (1921م)، في مقدمته لدراسة المذاهب الهندوسية، مطبعة صوفيا بيرنيس، بريطانيا 2، ص 7.

²- النشار، علي سامي (1949م)، نشأة الدين، دار نشر الثقافة، القاهرة، ط1، ص 66.

الغريزة الدينية هي صفة مشتركة بين كل الأجناس البشرية، وتختلف ممارستها حسب التقدم العلمي والمعرفي والفكري والثقافي، وتختفي وتضعف هذه النزعة عندما يبتعد الإنسان عن التزاماته الدينية¹.

هكذا تطور مفهوم الدين بتطور العلوم والثقافات، حيث تركز بعض الديانات على الاعتقاد فقط، في حين يعتمد آخرون على الجانب المادي والروحي، والبعض الآخر يعتمدون على الخبرة الدينية الذاتية للفرد في حين يرى آخرون أن كافة أنشطة المجتمع الدينية جزء من الوازع الديني، وقد ذكر بعض علماء الأنثروبولوجيا (جون موناغان وبيتر جست): "أن هنالك شيئاً واحداً (الدين أو المعتقد) يساعدنا على التعامل مع مشاكل الحياة البشرية الهامة، وهناك طريقة واحدة مهمة هي اكتمال المعتقدات الدينية، من خلال تقديم مجموعة من الأفكار حول كيف يمكن للإنسان أن يستوعب الظواهر الطبيعية الكونية مقارنة بعالمية الخلق²، فالدين عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا هو مجموعة من الأفكار والتأملات والتصورات المجردة، والقيم أو التجارب القادمة من رحم الثقافة التي تعتمد على مبدأ الطبيعة³.

المبحث الثاني: مفهوم الخرافة

جاء في لسان العرب أن الخرافة هي الحديث المُسْتَمَلَحُ من الكذب⁴، وذكر ابن الكلبي في قولهم أن خرافة من بني عُذرة أو من جُهينة، اِخْتَطَفْتَهُ الْجِنُّ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَكَانَ يُحَدِّثُ بِأَحَادِيثَ مِمَّا رَأَى فَيَعْجَبُ مِنْهَا النَّاسُ فَكَذَّبُوهُ فَجَرَى عَلَى أَلْسِنِ النَّاسِ بِأَنَّهُ كَاذِبٌ⁵، ويطلق الخرافة على الرجل الذي غاب عن قبيلته زمنًا ثم عاد فزعم أن الجن استهوته، وأنه رأى أعاجيب جعل يقصها عليهم، فأكثر فأعجبوا بخرافته وتعودوا من آفته⁶، وتقول فلان خرف عقله، أي فقد التمييز بين الحق والباطل فيما يستمع إليه ويتصوره، وصار عقله مستودعاً للخرافات والأساطير⁷، وتقوم الخرافة على أساس أساطير وهمية، ومن كلمة أسطورة جاءت كلمة story أي

1- كامل، جوزيف (ب ت)، التحول المجازي للدين، مكتبة العالم الجديد، لندن، ط1، ص 27.

2- الرازي، ابوبكر (1968م)، المختار الصحاح تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد ومحمد عبد اللطيف، مكتبة الأمل، القاهرة، ط2، ص 124.

3- الهاشحي (1963م)، مصدر سابق: 23.

4- ابن منظور (1373هـ)، مصدر سابق: 543.

5- الزكلي (2011م)، خير الدين خرافة، مكتبة العرب، بيروت، ط1، ص 54.

6- شهاب، الدمشقي (2013م)، شبكة اللادينيين العرب، دمشق، ص 11.

7- الشواف، قاسم (1994م)، ديوان الأساطير، دار السافي، دمشق، ط1، ص 34.

قصة أو رواية، فالخرافة أساطير وروايات لا محل لها من التصديق، وتعتبر الأديان السماوية الخرافة نوع من الانحراف القيمي والسلوكي إذا شاب في المجتمع، بينما تقوم الأديان التقليدية أو المحلية على فكرة الخرافة، فالخرافة هي التفكير الغير علمي وغير السوي على شيء معين من جراء هوى النفس، أو أمر شخصي من الصعب الحكم عليه، وغالباً ما يدين المتدينون بديانة سماوية غير أنهم يؤمنون بالخرافات، وينظر بعض الملحدون واللادينيين والمشككين للعقائد الدينية بأنها عبارة عن تنبؤات للعادات الخارقة، وبشكل عام توصف الممارسات الدينية بالخرافة للخارقة للآلهة كالسحر وتناسخ الأرواح، أيضاً الخرافة هي الاعتقاد أو الفكرة القائمة على مجرد تخيلات دون وجود سبب عقلي ومنطقي مبني على العلم والمعرفة، وترتبط الخرافات أحياناً بالتراث الشعبي للشعوب والأمم، حيث أن الخرافة عادة ما تمثل إرثاً تاريخياً تنقله الأجيال، وهي معتقد لا عقلائي قد تكون فكرية ثقافية أو اجتماعية، وقد تكون شخصية¹، ومن الخرافات الثقافية أو الاجتماعية إيمان كثير من الناس بأن الخرزة الزرقاء تدفع الشر، وبأن نعل الفرس مجلبة للخير، وتطيرهم بالغراب وما إليه، وتشاؤمهم من الرقم 13، وهنالك من يصنعون خرافاتهم بأنفسهم في كثير من الأحيان فقد يشتري المرء ورقة منتهية برقم معين فيكسب إحدى الجوائز الكبرى، فيعتقد أن هذا الرقم هو رقمه الميمون فهو لا يشتري إلا الأوراق التي تنتهي بالرقم المعين²، وقد وجدت الخرافة في كثير من المجتمعات التي سميت نفسها بالعقلانية كحضارات شرق المتوسط أو بلاد ما بين النهرين، لذلك فإن إثبات الأمر لا يحتاج لجهود سوى مطالعة المجلدات الأولى من الموسوعات التاريخية التي عنت بأحداث ما قبل التاريخ كالطبري أو قصة الحضارة، وقصص الآلهة اليونانية والرومانية وصراعها مع الواقع³، وما يهمننا هو أن الخرافة التي نشأت في ظل مجتمع ديني أو تسبب الدين نفسه بنشوتها ليست بالضرورة أن تكون ضمن الخرافات التي تتعامل معها الشعوب على أنها تراث أدبي صرف دون أن يكون له تأثير اجتماعي أو له دور جوهري في بنية العقل، لذلك من الصعوبة بمكان القضاء على ظاهرة الخرافة في التاريخ البشري على الرغم من تطور النهضة العلمية في الحقول الطبيعية والإنسانية، فمازالت تأثير هذه الظاهرة تؤثر فكرياً حتى على المجتمعات الأكثر تقدماً وحداثة في الغرب، ومازالت هنالك

¹- ديكارت رينيه (1960م)، تأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة بوبزيميريل، ط3، ص176.

²- الهاشي (1963م): 67.

³- كابلان، برايان (2005م)، لماذا المعتقدات الدينية غير عقلانية. المقالة حول الدين واللاعقلانية بالإنجليزية، ص41.

شريحة كبيرة تؤمن بتأثير قوى خفية مسكونة في الكون¹، ومن أهم العوامل لافتراف الإنسان ثقافة الخرافة هي :

أولاً: غياب نزعة التدين والعقلية العلمية الواعية، وهذا العامل مشترك بين المجتمعات المتدينة وغير المتدينة، ويعزي تلك الفكرة إلى ضعف الإيمان بالغيب، فمشكلة الغيب ليس له مقياس مادي لكي تتمكن من ضبطه، ولكن بقوة الإيمان يمكن تحديد ما يمكن الإيمان به؛ وما لا يجب الإيمان به، فالإنسان يألف التعامل بمقاييس مادية ورحية، فعندما تطرح خرافة ما وتلبس لبوس الغيب لا يستطيع المتدين العادي رفضها لأنه لا يملك المقياس المادي أولاً، ولا يملك المعيار الفلسفي الدقيق الذي يجعله بمنأى عن الوقوع في فخ الخرافة.

ثانياً: نشوء الفكر المادي عبر التاريخ مما دفع بعض الفلاسفة والعلماء إلى رفض فكرة الغيب، فهم لم يستطيعوا هضم الخرافة والتسليم بها، وفي الوقت نفسه لم يملكو معياراً دقيقاً في تمييز ما هو خرافي واجتنابه؛ وما هو غيبي يجب الإيمان به، فعمموا حكم الخرافة على الغيب.

وتؤكد بعض الروايات التاريخية والآثارية أن ديانات شعوب العصر الحجري القديم تعتمد على المعتقدات الدينية الوضعية التي كانت تسود معظم المجتمعات التقليدية، والتي تمثل أكبر مستوطنة عرفتها الإنسان البدائي الأول، وأن هذه التماثيل التي صُنعت ونحتت من الرخام والكلس الأزرق، والبيني والصخر والكالسيت والبالزت تؤكد جود مفهوم الإله المقدس وغير المقدس عبر التاريخ، وعلى هذا الأساس وُجدت هذه التماثيل المُتقنة في كثير من الأماكن خاصة في الأضرحة والمدافن والأهرامات وغيرها، حيث وُجدت العديد من التماثيل تبين مكانة الآلهة الذكورية جالسا على عرشه؛ ومحاط باثنين من إناث الأسود²، ونستنج من هنا، أن هذه التماثيل ربما كانت تستخدم كوسيلة لضمان الحصاد أو لحماية إمداد الغذاء، أو درعاً للكوارث، ودائماً كان - وما زال - فكرة الدين يشغل عقول الناس ووجدانهم في كثير من جوانب الحياة، لذا كان موضوع الدين ملتصقاً بالإنسان منذ عصوره الأولى، حتى مرحلة ظهور الديانات السماوية، وبطبيعة الحال كان لهذه الأديان الوضعية والتقليدية بمعتقداتها وأفكارها وخرابتها المختلفة، لها تأثيرها على الموروثات الشعبية والثقافية والفكرية، فقد

1- الشهاوي، مجدي محمد (1988م)، العلاج الرياني للسحر والمس الشيطاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، ص76.

2- خليل حسن، سمير ابراهيم (2001م)، الدين خرافة أم علم، دار الساقى، بيروت، ط1، ص76.

كان لكل مجتمع إلهها الخاص الذي تعزو إليه كل خصائص الإله الواحد، ولكنهم لم يروا في هذه الآلهة جميعاً إلا وجوهاً مختلفة، والدليل على ذلك أن المتوفى مثلاً عندما يحضر إلى قاعة الحساب عليه أن يتلو اعترافاته أمام اثنين وأربعين إلهاً، قبل أن يمثّل أمام الإله الأكبر على ما تنص عليه تعاليم كتاباتهم، وهذا يعني أن هذه الآلهة كانت تُعبّد تحت أسماء وتجليات خرافية متنوعة، لذلك فإن العبادة لم يكن إلا في شكل تعاليم قصصية أو شعرية أو في هيئة على ما تقتضيه طبيعة حال المتعبّد، وهنا يظهر دور العوامل النفسية والاجتماعية التي تؤثر على ميزان العقل، وقد حفظ الله تعالى القرآن الكريم الذي حوى جوهر الرسائل السماوية السابقة من الخرافات ليكون حجة على البشر إلى قيام الساعة، فالعقل السليم هو الذي يتوقف مع كل رواية يسمعها بالنقد والتحليل والتفسير، فالعاقل هو الذي يدعو عقله للتبصر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾¹.

وبالرغم من أن الغيب يشكل القاعدة الأساسية لفكرة الدين والتدين، إلا أن كثيراً ما يستغل فكرة الإيمان بالغيب لتمير ثقافة الخرافة وُدس الأساطير وإلقاء رداء الدين على كتف الخرافة لحصول على القدسية التي تمنحها فرصة الانتشار بين المجتمعات البشرية، وبما أن الإنسان في أغلب الأحيان لا يستطيع معرفة المقاييس المادية لتمييز ما يمكن الإيمان به؛ وما يجب رفضه من الأفكار التي تطرح تحت عنوان الغيب، فالناس لا يتوافقون على مقياس فلسفي معين، لذلك تتفشى الخرافة بينهم ويزداد النار اشتعالاً كلما تدنى مستوى الالتزام الديني إما لعدم جرأتهم في الخروج من ثقافة الهيمنة الثقافية والفكرية، أو لغياب العقلية العلمية الواعية والمدركة، أو لعدم أهليتهم لمواجهة المخاطر أو التحديات التي لا تتوافق من عاداتهم وتقاليدهم، ولتنقية المجتمع من هذه الظواهر يجب حماية الثقافة الفكرية من العلوم التي تعارض الإيمان بالغيب، والتعاون على أسس علمية منطقية، والاهتمام بالقيم الدينية النابعة من الكتاب والسنة، وعلى المثقفين وضع الأسس السليمة للتعامل مع موضوعية الخرافة، وتأسيس مجتمع واع يدرك المعايير التي تساعد على هداية الأمة، والخروج من براثن الشرك.

¹- يوسف:2.

هكذا يرى بعض مؤرخي الأديان أن ما يشغل بال الذين يمارسون الطقوس ميزتا التكرار والشحنة الرمزية، فالممارسات الطقوسية تستحضر واقعاً مجتمعياً محلياً يتسم بالتغير السريع، ويشهد ذلك في كثافة للممارسات الطقوسية، وخاصة في الممارسات الدينية والاحتفالية، فالزمن الاجتماعي يختلف حسب إيقاعات وأشكال التعقيب الزمني، ومن هنا تختلف ممارسة الطقوس عند حالة الفرد في (عيد الميلاد، الزواج... الخ) وفي حالة الجماعة (الأعياد الدينية والوطنية)، ولذلك تتخذ شكل الممارسة دلالات مشتركة أحياناً، ومختلفة لدى الجماعات أحياناً أخرى، لاختلاف الوظائف في كلٍ.

المبحث الثالث: مفهوم الأسطورة

الأسطورة لغةً: جاء في لسان العرب مادة أسطورة تعنى حادثة أو أخباراً¹.

أما اصطلاحاً: تأتي الأسطورة بمعانٍ مختلفة على النحو الآتي:

* الأسطورة: وليدة الخيال الذي يسبق حب الاستطلاع والفروض العلمية عند التفكير في الظواهر الطبيعية وفي المعتقدات والشعائر الدينية وغيرها.

* القصص الشعبية: وهي القصص التي تتصور دائماً في شكل الجن والعفاريت، وغيرها من القصص والروايات المجازية الرمزية التي تدور حول شخصيات خيالية وأحداث وهمية نتاجاً للخيال، كالقصص التي تتناول دور الطفولة والبطولة، يبتدعه مؤلفون؛ وتتناقله الأفواه فينتقل من شعب إلى آخر على اختلاف اللغة والعادات والتقاليد والمعتقدات الدينية.

* الأسطورة: تجمع بين الفكر والخيال والوجدان، أدواته الرمز، والسرد أحد أشكالها، وهي بمثابة أحداث خارقة للطبيعة البشرية².

ويرى آخرون بأنها خرافة، لقوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

1- أبادي، الفيروز، وآخرون (1419هـ)، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ط1، ص365.

2- دوكنيز، ريتشارد (2006م)، وهم الرب، كتب بانتام، مكتبة جامعة نيويورك، نيويورك، ط1، ص7.

الأوليين¹، أي أكاذيبهم المسطرة في كتب الأولين، وقال تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ}²، أي حكاية يسودها الخيال؛ وتبرز فيها قوى الطبيعة في شكل آلهة أو كائنات خارقة للعادة، ويشيع في رواياته توظيفاً جيداً، وأساطير الأولين أي ما سطره الأولون في كتبهم، لقوله تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}³، و يقول لايبيير Lapier وفانزورث Farnsworth أن الأسطورة (ميثولوجيا) هي عبارة عن شائعة أصبحت جزءاً من تراث الشعب الشفاهي⁴، ومن الناحية اللغوية كثيراً ما تستخدم كلمة شائعة محل كلمة الأسطورة، ويرى علماء الأنثروبولوجيا بأنها عبارة عن حكايات الناس وأساطيرهم ورواياتهم التي تنقل شفاهة من جيل إلى آخر، لكي تحفظ من الضياع بقوة ذاكرة الذين يتوارثونها⁵، أو هي حكايات خرافية تنشأ من خلال السرد التاريخي، يلعب فيها الأبطال دور الصور الخيالية والوهمية، وهم بمثابة الآلهة، حيث يشرح البطل الأسطوري الظاهرة الطبيعية بالصورة الذي يحلو له، فالأسطورة كالخرافة لأنها تستند إلى أساس تاريخي وهي تصور ما وعته ذاكرة الشعب أو ما نسجه خيال شاعر حول حادث حقيقي أو وهمي أو خيالي⁶، فالأسطورة هي الشخصية ذات الأصول الخيالية والتصويرية التي تساهم الذاكرة الشعبية في المبالغة في وصفها، وإضافة صفات لم تكن فيها؛ ونصبت أحداث لم يمارسها، مما أسهم في إثراء الذاكرة الشعبية والتراثية لدى الشعوب، وتختلف الأساطير من شعب لآخر باختلاف العادات والتاريخ والأحداث⁷.

هكذا استخدام مصطلح أسطورة للتعبير بشكل سيء عن فكرة الدين سواءً من قبل المتدينين أو الغير متدينين، ومن هنا يتضح تأثير المعنى السيء لكلمة أسطورة التي يحاول القائلون بأمرها الوقوف ضد فكرة الأديان الموحى، ومع تأثر الإنسان بالظروف البيئية المختلفة فقد شكلت لديه وعياً وانطباعات وأفكار أسست

1- الأنعام:25.

2- الأنفال:31.

3- الفرقان:5.

4-Encyclopaedia of Britannia 1961:869.

5- نصر، صلاح(ب ت)، الحرب النفسية، دار الأمل، دمشق، ط1، ص66.

6- يوسف، زيدان (2010 م)، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، القاهرة، ط1، ص38.

7-عاشور، سعيد عبدالفتاح(1966م)، أوربا الوسطى، دار الجبل، بيروت، ط2، ص66.

لوعي جمعي فريد وذاكرة رائعة صقلت قدراته من خلال التطور التاريخي التي مرت به، الأمر الذي تركت انطباعات مختلفة لدى الأتباع والجماهير، فهناك شخصيات أظهروا صفات بطولية وشجاعة لا نظير لها في محاربة الباطل وإحقاق الحق، وهناك دعاة للسلام والمحبة والتوحيد، وهناك كرماء يغيثون الملهوف ويساعدون أصحاب الاحتياجات، وقادة عظماء وفاتحون، وقضاة عادلون، وعلى النقيض تماماً نجد الظالمون والطماعون الذين نكّلوا في الناس وأذاقوهم الويلات، وهناك اللصوص والمتكبرون والمتجبرون، كل هذه التجارب جعلت الشعوب تعشق وتحب وتكره وتبغض، مما حفزها على المبالغة في وصف من مروا في تاريخها.

لذا فإن فكرة الأسطورة تشكل حيزاً كبيراً في ذاكرة الشعوب، لأنها تنظر للأساطير نظرة مقدسة ذات أبعاد فلسفية ومعنوية كبيرة، وحقائق لا يمكن الفكك منها، وتنوع الأساطير الشعبية: فهناك الأساطير المتعلقة بشخصيات وأبطال، وهناك الأساطير التي تفسر وتشرح حدوث بعض الظواهر الطبيعية أو الخيالية التي تتعلق بحياة الأجداد أو الأسلاف، أما النوع الأخير فهو الأساطير التي تشرح النشوء والتكوين والارتقاء، وهي عبارة عن القصص المنسوبة لأشخاص بالخيال، والتي لا تمت للحقيقة بصلة، ومن أبرز سماتها أنها انتقلت على الألسن باللغات المحلية أو اللهجات التقليدية، والبعيدة كل البعد عن الواقع والمنطق¹.

علم الأساطير: هو علم يبحث في مجموعة الأساطير المعروفة الشائعة لدى شعب من الشعوب، وخاصة الأساطير المتعلقة بالآلهة والأبطال والخرافيين... الخ².

أنواع الأساطير: تنوع الأساطير على النحو الآتي :

- الأسطورة الطقسية: وهي التي تتعلق بالجانب الكلامي أو الفلسفي.
- الأسطورة التكوينية: وهي التي تصور عملية خلق الكون.
- الأسطورة التعليلية: وهي التي تهتم بالخيالات والتصورات.
- الأسطورة الرمزية: للدلالة على رمزية البطل أو الظاهرة الطبيعية.

¹- عاشور، مصطفى (1986م)، عالم الجن أسرار وخفاياه، مكتبة الأمل، القاهرة، ط1، ص87.

²- السيوطي، جلال الدين (1970م)، رشف الدلال من السحر الحلال، دار العلم، القاهرة، ط1، ص16.

وقد ذهب بعض الفلاسفة أن الأسطورة هي القصة المقدسة التي كان أصحاب الحضارات السابقة يؤمنون بها على أنها كتبهم المقدسة، وتتميز الأسطورة بعمقها الفلسفي الذي يميزها عن الحكايات أو الروايات الشعبية التي تكون شخوص من الآلهة أو أنصاف الآلهة¹، فالأساطير تعبر عن نظرة الشعوب القديمة للحياة التي قدمت لهم تفسيراً متكاملًا للحوادث الكونية من خلال تطور مستوياتهم العقلية، وأهم ما ارتكز عليه الأسطوريين في سيطرتهم على عقول البشر هو مبدأ حيوية الطبيعة والتفسير اللاعقلي للأحداث، حيث منح القدماء صفة الحياة للجوامد مثل النيل عند الفراعنة والأسد والشمس عند النوبيون في شمال السودان، حيث منحوه الإرادة والقدرة، وفسروا حدوث الأشياء بغاياتهم، فالشمس تشرق كي تنير لهم الأرض والنجوم تضيئ كي تهديهم في الطريق، والمطر ينزل لكي يروي زراعتهم.

أيضاً جاءت في بعض الروايات التاريخية التي تحدثت عن قيم الأسطورة أن المخالفة والشك قد تنذر بعذاب، لذلك دعا (زيوس) زعيم الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية البشر الذين يمثلون مجتمع الآلهة إلى اجتماع طارئٍ للتباحث بشأن مصير الذين خالفوا تعاليم الآلهة، فاختلفت الآراء حول إغراق الأرض بالماء²، غير أنه توعدهم بسحب الماء من البحار، فقال "بوسيدون" إله البحار، بأن يسحب المياه إلى قيعان المحيطات، فبانت الأرض الرطبة من جديد، وجرّ "أبولو" عربة الشمس الذهبية إلى الأفق فأينعت الأشجار وجفت المستنقعات³، ففزع آلهة "الديوكاليون" و"البيرا" عندما وجدوا نفسيهما من دون أهل أو أصدقاء؛ فالأرض من دون البشر يصعب العيش عليها، فتضرّعا إلى الآلهة من أجل إصلاح ما حاق بالجنس البشري، فأوحت لهما بالأمر الإلهي بالخروج من المعبد قائلاً: "اخرجا من معبدي، وضعا على رأسيكما غطاء، وتخفّفا من الأحزمة التي تشد ثيابكما، واقدفا وراءكما عظام أمكما الجليلة"⁴ وحين يأمل المرء التفكير في الأسطورة يكشف له أنها تحكي عن صورة خرافية وخيالية لواقع الأحداث وتداعياته وفق الزمن التاريخي، لذلك يختلط على الإنسان تحديد من أين تبدأ وتنتهي الأسطورة وأين يبدأ التاريخ؟ فالأسطورة تعطي الإنسان وهم فهم الكون ووهم معرفة الحقيقة، وتحاول

1- السواح، فراس (2002م)، مغامرة العقل الأول، دار علاء الدين، دمشق، ط3، ص33.

2- رينان (ب ت)، مصدر سابق: 32.

3- السواح، فراس (2004م)، موسوعة تاريخ الأديان، دار علاء الدين، دمشق، ط1، ص22.

4- عجينة، محمد (1994م)، موسوعة أساطير العرب، دار الفارابي، بيروت، ط1، ص29.

أن تفسّر الظواهر الطبيعية بالمزاج الصوري، أما التاريخ فيعطينا تسلسل الأحداث والتشديد على المعنى والمحتوى الكامن في تسلسلها¹، وهنا يستعين الأسطوري بالرموز من أجل محاولة إدراك واقع الأشياء، لأن الوجود قد يتجلى في صور مختلفة، وقد تكون متناقضة في بعض الأحيان، فالحياة مليئة بالأساطير التي تحكم مواقف الإنسان تجاه الحياة نفسها، من دون أن يعي تأثيرها فيه، فإذا نظرنا إلى مفردات الوجود حسب زعم الأسطوريين فهو وهم قياساً إلى إيقاعات الكون، فالإنسان كائن اجتماعي محدّد بزمانه وتاريخه الذي يحيا بعيداً عن زمان آباءه وأجداده، وبعيداً عن مكان غيره من المعاصرين له والمختلفين عنه في ثقافتهم وتركيباتهم التاريخية، ومن خلال تلك المعطيات فإن علاقة الإنسان بمحيطه البيئي والاجتماعي والحياتي يتم بواسطة الحواس الخمس، وهنا يختلف فاعلية الإدراك من شخص إلى آخر وفقاً لمستوى الوعي الذي هو محصلة لتجربة عملية وتربوية نظرية، فالذي يعمل عقله يستطيع التفريق بين ما هو أسود أو أحمر، وتبقى القيمة الارتباطية للون هي محصلة تجارب ذاتية أو شخصية فمدلول المعنى محل اختلاف، فالحواس هي التي تمارس على الإنسان الخديعة، فعندما ننظر إلى الأشياء البعيدة نراها صغيرة، وكلما اقتربنا منها نراها كبيرة، وهكذا فالمعرفة الكلية خارج نطاق حواسنا ولا نستطيع إدراكها إلا بالعقل، وعلينا ألا نضع كل ثقتنا في حواسنا، فالإنسان بحواسه الخمسة محكوم بغرائزه الداخلية والخارجية، ولكن عليه أن يستخدم العقل ويستدعي صرامة ذهنه لإعمال المنطق على كل ما هو غير منظور، وإخضاعه للمعقولية كمقدمات تؤدي إلى نتائج واقعية، فالأسطورة هي تلك الصيغة الإبداعية التي تنزع الإنسان من زمانه الدنيوي، وتنتقل به إلى العالم المقدس²، فالعناية بالأسطورة تمحو الزمن الحاضر وتُخرج الراوي والمستمع إلى وهم حيث تلعب الدور الذي يلعبه بعض رجال الدين في الكنيسة عندما يعتقدون في التطهير من الخطايا والاعتراف بصكوك الغفران أو ذبح كبش فداء، هذا بالإضافة إلى ممارسة الطقوس المقدسة للخروج من الزمن الدنيوي إلى الزمن المقدس³، فالیوجا عند الهنود تعتقد في الرياضة الصوفية التي يؤديها الحكماء وهي بمثابة الخروج من الزمن الدنيوي إلى

1- الشواف، قاسم (1994م)، مصدر سابق: 44.

2- ولسون، كولون (1987م)، الإنسان وقواه الخفية، دار الأدب، بيروت، ط1، ص9.

3- الشواف، قاسم (1994م)، مصدر سابق: 61.

الأخر الكوني بهدف اتحاد الروح بالكون¹، أما عند البوذية فهي تطلق على الخير الأعلى، وتسعى للخروج من الزمن الدنيوي بنكران الذات لبلوغ مستوى "النرفانا" وفناء الذات في الكل، وكلما ازداد المؤمن خشوعاً في صلواته ازداد خروجاً من الزمن الذي لا وجود لشيء خارجه²، وعلى هذا المنوال فإن كل الحضارات الإنسانية لها أساطير حول الخلق وحول الوجود، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإعادة تأويل الماضي، كما أنها تلعب دوراً في استشراف المستقبل، وتحاول أن تحدد إلى أين نحن ذاهبون، أيضاً تشكل أساطير كل مجتمع مجموعة من الخطابات الرمزية التي تخلق هوية ذلك المجتمع، وتكون جزءاً أساسياً من تكوينه الثقافي، وقد تكمن قوة الأسطورة في ارتدائها قناعاً من الخيال يخفي الحقيقة المتوقعة التي يمكن أن يعاد تأويلها على ضوء الأحداث الواقعية، وغالباً ما تعتمد النخب الحاكمة على القوة المعرفية لرموز الأساطير وتأويلها لإضفاء الشرعية على سلطانها، فلا وجود لأسطورة سيئة وأخرى حسنة، ولكن التأويل هو الذي يضعها في هذه الخانة أو تلك.

هكذا نجد أن هنالك الكثير من المواد التاريخية قد احتوتها الكثير من الأساطير والتزييف والتحريف، خاصة عندما اعتمد بعض فلاسفة التاريخ على قيمة الرواة ولم يعتمدوا على النقد النصي لرواية الحدث لتكوين رؤية واضحة لتقييم النصوص والرواة، الأمر الذي أدى إلى خروج السجل التاريخي مشوهاً للحقائق وتشويهها بما لا يتناسب وعظمة التأريخ الإسلامي³، فيجب على المحقق أن يقوم قبل كل شيء بنقد موضوعي لكل ما جاء في كتب التأريخ والحديث والتراجم والرجال والتفسير بعد عرضه على العقل السليم لإبطال الحجج التي يرددها مؤرخو المدرسة الأسطورية التي لا تمت للتأريخ ومهنة الكتابة التاريخية والمنهجية بصلة ولا ترتبط بها لا على أسبابها ولا على علاقتها.

فالممارسات المقدسة التي تدخل الفرد في حالة القداسة؛ تجعله يمارس مناسكه بعيداً عن الشعائر التعبديّة، لذلك فإن أداء المراسيم الطقسية تعتبر ضمن التعاليم الدينية المحرفة الهدف منها محاولة الدخول في تجربة القداسة، وتختلف مجال ممارسة الطقوس حسب الأنشطة والممارسات غير الدينية، هذا إلى جانب

1-كابلان (2003م)، مصدر سابق:12.

2-بايرن (2005م)، مصدر سابق:12.

3-عبد المعبد، محمد خالد (1936م)، الأساطير العربية قبل الإسلام، مؤسسة التأليف والترجمة، القاهرة، ط1، ص90.

الأنشطة الاقتصادية والسياسية والرياضية، وأفعال التواصل والاتصال، وبناء العلاقات التي تتم بين الأفراد في حياتهم اليومية. ولقد حاول الإنسان منذ زمن طويل على امتلاك القدرة على إعمال العقل والقدرة على تفسير ما حوله من حوادث ووقائع، وأن يستشف أجوبة لأسئلة كثيرة كانت تلاحقه وتعرضه بين فينة أخرى، ومن جراء تلك المقومات العقلية يستطيع الفرد الخرافي أن يضع الصورة المثلى لتفكيره وتحليله؛ وأن يحرك دوافعه في الكشف عن أهمية الظواهر الطبيعية في نشأة فكرة الدين، ومن خلال تعامله مع تلك الظواهر نشأة لديه عدة أنواع من التفكير سميت بالتفكير الأسطوري، فالتفكير الأسطوري هو أبسط أنماط التفكير التي لجأ إليها الإنسان البدائي في التعامل مع العالم الذي يعيش فيه، ويتمثل في محاولاته من أجل فهم مكان العالم، ممزوجاً بالتجربة والتفسيرات الخيالية القائمة على السرد الأسطوري، ويعزو التفكير الأسطوري للأحداث والظواهر التي تعود إلى قوى غيبية خفية، كالأرواح والأشباح والشياطين، هذا بالإضافة إلى القوى غير المرئية الكامنة وراء الظواهر الطبيعية، أو الآلهة التي تتحكم في مصائر البشر، أيضاً ذهب البعض إلى أنها القصة الشعرية المصنوفة زجلاً أو شعراً¹، بحيث تحوي موضوعاً دينياً يتعلّق بالقوى العلوية والخفية، كما أنّها تعدّ جزءاً من التراث القديم الذي يعبر عن نتاجات الأولين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربانية لهم، إذاً فالأسطورة تُعبّر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب ذي إيقاع شعري موسيقي يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الرب، الهدف منها تثقيف العقول وتحريك المشاعر والعواطف²، وعلى ذات النسق يرتبط ممارسة الطقوس في الأديان التقليدية بموقع الطقس أو المقدّس في المجتمعات البدائية، ويرى دوركايم: "إذا كان الدين الذي يتجسّد دوماً من خلال الطقوس في المجتمعات التقليدية يتأثر في الميزان الاجتماعي هنا يكون الأسطورة مرادفاً للدين التقليدي"³، وقد تأخذ الوظائف السياسية والاقتصادية والعلمية في المجتمعات الحديثة جزئياً من الوظيفة الدينية (القداسة) لارتباطهما بالممارسات الوصفية، فالطقوس على وجه العموم مرتبطة بالمقدّس خاصة في السياق الديني لأنّها واقعة في جوهر المحور الاجتماعي، فالخيار المنهجي عند الأسطوريين هو عبارة عن معرفة

1-هاينمان (1966م)، أصل الحياة و الموت، وأساطير الخلق الإفريقية، المكتبة الوطنية، القاهرة، ط1، ص98.

2-ولسون، كولون (1987م)، مصدر سابق:45.

3-Durkheim, Emile, 1956, The Elementary Forms of Religious Life. New York, p34.

عملية في ممارسة الطقوس ووظائفها ودلالاتها، ومع اتساع مجال الإدراك العقلي في الحياة الاجتماعية الحديثة؛ انتشر منطق بناء العلاقات الاجتماعية، فازدادت الحاجة إلى ممارسة الطقوس لأجل المنفعة الذاتية، والبحث عن المردود الروحي والمادي المباشر¹، لذلك يلجأ الكثير من البدائيين في الممارسات الرمزية من خلال الاهتمام بالتأملات والخيالات ومن هنا نلاحظ أن هنالك وجه مقارنة بين الظاهرة الطقوسية والمعالجة الوضعية، وهو ما يجعل التفكير فيها غير ذي فائدة في زمن يقتضي الصرامة الإجرائية والمعرفة الدقيقة، ففي واقع الأمر ليس في الممارسات الطقوسية ناحية عقلانية خالية من الشوائب "اللاعقل" أو من تأثير "جنونية العقل"؛ فما نسميه عقلاً لا يمارس فعله ونشاطه بشكل مستقل عن العواطف والخيال، بل يمارسه في ارتباط مع الحلم والمتخيل والصور الذهنية الماثلة في أعماق اللاشعور الإنساني، فالخيال والجنون والشطحات الذهنية ماثلة في ذهن أكبر العقلاء عندهم، ولذلك يبقى العقل دوماً في حاجة إلى الخيال والوهم من الناحية العملية لذا من الصعب نزع النظرة السطحية الساذجة التي تبدو من خلالها الأنشطة الطقوسية²، أما بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع خصوصاً، تمثل دراسة الطقوس ورموزها وممارساتها مجالاً خصباً يسمح بفهم شواغل الجماعة وذهنها الجمعي، وميداناً ثرياً لكشف ما ينتجه المتخيل الجمعي من صور ذهنية ورموز، الأمر الذي يجعل من دراسة هذه المنتجات في المتناول العلمي أكثر صعوبة³، ولقد أولى الكثيرون لطقوس التفاعل في الحياة اليومية اهتماماً أساسياً في مقارباته السوسولوجية البسيطة في الحياة الدينية، مبيّنين أن كل ما يقع فيها الممارسة الإنسانية من أوجه النظام والانتظام التي تحدث أثناء أو بعد ممارسة الطقس، وقد تختفي رمزيته أحياناً من خلال ممارسة عمليات التواصل الأكثر شيوعاً بين الأفراد في الحياة اليومية، وبفضل تلك القاعدة الفلسفية، يقول "قوفمان" أنه كلما تمادى رجل الطقس في استخدام فكرة الرمزية في الطقس كلما ازداد فوضى الممارسات اليومية، من خلال تلك الممارسة ينخرط فيها الناس ويتقيدون أعمالهم بها دون أن ينتبهوا إلى رمزية الطقس،

¹-يستين، جريج (2010م)، من الجيد أن تكون بدون إلهة، هاربركوليتز، نيويورك، ط1، ص 51.

²-Ehret, Christopher, (2002) The Civilizations of Africa: a History to 1800. Charlottesville: University Press of Virginia, p89.

³- Karade, B (1994) The Handbook of Yoruba Religious Concepts. York Beach, MA: Samuel Weiser Inc, p22.

كما بين "قوفمان" أنّ الناس كائنات طقوسية لكلّ امتياز، ولا يمكنهم العيش معاً إلاّ بواسطة طقوس تنظم مبادئهم الرمزية المختلفة، وهذا ما يسمى بجمعية الدين¹.

يرى البعض أيضاً أن الأسطورة بمثابة قصة خيالية طويلة ترتبط بالقبائل القديمة التي عاشت في مختلف أنحاء العالم، ويقومون بصياغة هذه القصص الخيالية لمجموعة من الأسباب الخاصة بهم، ويتم عبر تناقل الروايات بين الأجيال المختلفة، حتى يتم إثبات أنها حقيقية²، ويرى آخرون بأنها مجموعة من التصورات والخيالات غير الواقعية، والتي تصف أحداثاً وأشخاصاً وأماكن غير موجودة من أجل الوصول إلى تحقيق الهدف الرئيسي للأسطورة والمحافظة على انتشارها وتصديقها من قبل الناس، وقد اهتمت الشعوب البدائية القديمة بفكرة الأساطير والظواهر الغريبة، والأمور المدهشة، وهذا ما ساهم في ظهور العديد من القصص الخالية التي يتم التغيير على محتواها، وإضافة أشياء جديدة عليها حتى تتحوّل من مجرد قصة عادية إلى قصة تتسم بعدم الموضوعية، كما تحتوي على الكثير من التفاصيل غير المنطقية، وترتبط صناعة الأسطورة غالباً بأمور دينية خصوصاً عند الشعوب التي تؤمن بأكثر من وجود إله، كما ترتبط بالظواهر الطبيعية، فالمجتمع يشكل المسرح اليومي التي تُؤدّى فيه الأسطوري أدوارها بطريقة منتظمة، ووفق طقوس تفاعلية لا تستوعب أنماط من الحياة الاجتماعية والثقافية، وضمن هذه النظرية يملك كل فرد موقعاً اجتماعياً له خصوصيته في الحياة، فالمحافظة على الماء يدخل ضمن قواعد التفاعل البشري لأنه ضروري لحياة الإنسان، وقد تخضع ممارسة الطقوس إلى جملة من الشعائر والمراسم المقعدة ترجمها رموز الجماعة القولية منها والحركية، والتي بدورها تتحقق غايات التواصل؛ وتشبع الحاجات³، ومن هنا ترتبط ممارسة الطقوس بالسلوك، والتي هي جملة من الخواص تتميز عن باقي الممارسات الجماعية في أنها أهمّها منتظمة؛ وفق تراتيب وضوابط معينة تتسم بالترابط الرمزي، ويجري ممارسة كل طقس وفق سيناريوهات درامية متكررة تختلف باختلاف وضعية التفاعل والأنظمة الثقافية في كل منطقة أو مجتمع أو قبيلة... الخ.

¹- الهاشي (1963م)، مصدر سابق: 34.

²- Eliade, m. The Sacred and the Profane – harvest, New York 1969, p. 9-10.

³- Spencer Trimingham, 1962, History of Islam in West Africa. Oxford University Press, p22.

أيضاً تختلف ممارسة الطقوس في الأديان التقليدية باختلاف الزمان والمكان حيث تقام بعضها في وضوح النهار خاصة الطقوس الاجتماعية المصاحبة للزراعة أو الحصاد؛ وتتسع رقعة المشاركين لتشمل الكبار والصغار على السواء، أما الطقوس التي يغلب عليها الطابع الديني فتتمارس ليلاً كطقوس تمجيد واستحضار أرواح الأسلاف على اعتبار أن الأسلاف موجودون ويؤثرون في الحاضر والمستقبل، فإذا كانت وظيفة الإضاءة في المسرح هو التعبير عن توالي الزمن من الصباح للمساء، ومن الماضي للحاضر وبالعكس، (أي البعد الأفقي للزمن) فإن الإضاءة في الطقوس الأفريقية مثلاً تعكس مفهوم البعد الرأسي للزمن؛ وتأكيد على وجود الماضي في الحاضر ومن هنا يبدأ مفهوم التعدد الثقافي بين الأوساط البدائية¹.

ومن خلال تلك المعطيات ندرك أن هنالك عدة مبررات تستدعي استمرار هذه الظواهر التي تبدو في الظاهر غير منطقية في الممارسات الطقسية، وفي جانب آخر منطقية لأن الممارسات الطقوسية كثيراً ما يتعرض إلى التكرار للإثارة من قبل ممارسيها خلال أزمنة مضبوطة، الغرض منها إحياء واقعة مضت أو احتفاء حدث يعني للجماعة رمزاً، وثمة أوضاع وأحداث كثيرة تظهر في حياة الجماعة يمكن ضبطها وفق لائحة تستدعي ممارسة الطقوس، بعضها ديني وبعضها الآخر خرافي يندرج ضمن مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة، ومهما يكن فالمشاهد للاحتفالات الطقوسية يؤكد منذ الوهلة الأولى أنّ الذين يمارسون الطقوس يعتقدون أن ممارستهم ضرورة واقعية لأنها تساعدهم في إشباع حاجاتهم الدنيوية والأخرية سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، ومن خلال العمليات الثلاثة المصاحبة للفعل الطقسي: الشحن الرمزي والتقعيد والتكرار، يتم شحن الزمن بالقداسة، وتستعاد وقائع التاريخ المقدس من خلال أعمال العقل الجمعي التي يضمن استرجاع وقائعها وشخصها الرمزية حين تثبت واقعية إحياء الأحداث المهمة رمزياً لكي تبقى صورها مشحونة بالشحنات الرمزية الماثلة في العقل.

+

¹-Jenny Gunn. the Complexity of Religion and the Definition of Religion in International Law (Harvard Human Rights Journal, vol 16 s 2003 issn 1057,p11.

المبحث الرابع: دور الدين في التخلص من الظواهر النفسية والاجتماعية السلبية

تؤثر حياة الفرد الاجتماعية والنفسية والبيئية سلباً أو إيجاباً في معدل الصحة النفسية التي يتمتع بها، حيث أكدت منظمة الصحة العالمية في تقريرها المختصر عن الصحة النفسية على اختلاف؛ وتنوع العوامل المؤثرة كالاكتلالات العقلية، وأمراض القلب، والاكتئاب، وتعاطي المخدرات والأدوية وغيرها، هذا بالإضافة إلى المعتقدات الدينية التقليدية التي هي من صنع البشر كالخرافات والأساطير، وشعور الشخص باليأس، وتدني الدخل، وانتشار البطالة، وانتهاك الحقوق، كل هذه الأسباب تؤثر سلباً في الاعتقاد الديني والتنشئة الأسرية غير السليمة... وغيرها، كذلك تلعب دوراً كبيراً في التعامل مع العوامل البيئية والنفسية والاجتماعية التي من شأنها حرمان الأفراد من التمتع بالاستقرار في الصحة النفسية، وبالتالي يصبح انتشار وظهور الانحرافات والأنماط السلوكية غير السوية وحالات القلق من أكبر المحددات السلبية التي تساعد في نشأة الاضطرابات النفسية، وهناك علاقة قوية بين الاضطرابات النفسية والممارسات الطقسية، فالذين يمارسون الطقوس يشعرون بالعلل النفسية المختلفة، ويفسرون الظواهر الطبيعية وفق معتقداتهم الدينية سواء في جلب الخير أو دفع الشر.

إن الأمانة التاريخية الملقاة على عاتق المؤرخ المسلم يحتم عليه أولاً التجرد من كل ما لا يتناسب مع قيمة المهنة حتى لا ينحو نحو الخيانة وظلم الناس وظلم للحقيقة وهي مهمة تتنافى مع كون التاريخ دراسة علمية للأحداث والسلوك الإنساني في الأرض وارتباط هذه الأحداث مع جملة من التكوينات الحضارية والمدنية المرتبطة بحياة الإنسانية (الخلق)¹ وما نراه في كتابات مدرسة الأسطوريين كانت الهدف منها تقديس الطقوس وتقديم القرابين، وعزل الأحداث عن مقدماتها وإفراغها من محتواها الواقعي، وذلك بتقديم صورة مشوهة للمعتقدات الدينية، وهم كما خاطبهم المولى عز وجل بقوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْتُمْ حُشْبٌ مِّنْ حُشْبٍ مَّسْنَدَةٌ يَّخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ}²، فهؤلاء الموصفون هم الذين شاركوا في صنع التاريخ ليس كفاعلين فحسب بل واضعين له

¹-السواح (2011م)، مصدر سابق:6.

²-المنافقون:4.

مستفيدين من حالة الجهالة التي هم عليها من قبل الأمة، لقوله تعالى: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ)¹، يبين لنا هذا الوصف القرآني لحال المنافقين أن الكثير من الممارسات والوقائع قد حدثت بالفعل، وقد أثرت في كتابة التاريخ الإسلامي، فالتاريخ ليست نقداً ومحاكمة للوقائع فقط، ولكنها منهجية مجردة من الدوافع الشخصية والآراء الأسطورية والخرافية لتمهض بقراءة متطورة للوقائع والأحداث وفق قانون منضبط له علاقة مع السنن الكونية ونتائج يمكن قياس الماضي بعقلية واعية والتنبؤ للمستقبل برؤية علمية صارمة خالية من الأساطير لبناء معطيات حضارية فكرية وسياسية وثقافية مجردة من الأوهام والخرافات والأسحار.

فالمنهج الإسلامي التربوي يسعى إلى تحقيق أركان الصحة النفسية للمساعدة في بناء شخصية سوية من خلال تقوية الصلة بالله عزّ وجلّ والثبات والتوازن الانفعالي، وبالصبر عند الشدائد والتفاؤل وعدم اليأس وفضرة الإنسان بالدين تقوم على الاعتراف بوجود الإله، ولكن تلك العلاقة قد تتعرض للانحراف فينحو فيها الإنسان نحو الكفر والإلحاد، والمتأمل لحركة التاريخ يجد أن الدين قد لعب دوراً كبيراً في الحفاظ على فكرة بناء المؤسسات الاجتماعية، فالتراث الأخلاقي الذي يدعي الإنسان المعاصر أنه نتاج اجتهاده سوف يكشف بسهولة أن ذلك التراث هو أحد نواتج الدين، فالصدق والأمانة والحب والتسامح والسلام وإتقان العمل والنظام... إلخ، كل هذه القيم حثت عليها الأديان السماوية قبل أن يصبح للإنسان تراثاً أخلاقياً أو حضارياً، فالقيم والعادات والتقاليد والقوانين والنظم الدينية والاجتماعية والاقتصادية كلها عصارة عملية نتيجة لاقتراب الإنسان من سيكولوجية التدين، وقد فضل الله الإنسان بالعقل وميزه عن سائر المخلوقات، وهذه الخصلة أصبح الإنسان خليفة الله في الأرض وسخر له ما في البر والبحر وكلفه بعبادته وطاعته وتكفل برزقه، فالمنهج الإسلامي التربوي يدعو إلى تحقيق أركان الصحة النفسية للمساعدة في بناء شخصية سوية من خلال الآتي:

1. تقوى لله عزّ وجلّ: وهي أمر أساسي في بناء عقيدة المسلم في المراحل الأولى من عمره حتى تكون حياته خالية من الاضطرابات النفسية التي تدعو إلى الإذعان بالخرافات والأساطير، لقول النبي صلى الله عليه وسلم؛

1- التوبة:101.

حين قال لعبد الله بن عباس: "يا غلامُ إني أعلمُك كلماتٍ: احفظِ اللهَ يحفظَكَ اللهُ تجدهُ تُجاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهُ ، وَإِذَا اسْتَعْنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ"¹.

2. الثبات والتوازن دون الانفعال: أي أن الإيمان بالله يشيع في القلب الطمأنينة والثبات والاتزان، وبقي المسلم من عوامل القلق والخوف، لقوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}²، وقال تعالى: {فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}³.

3. الصبر عند الشدائد: يربي الإسلام في المؤمن روح الصبر عند البلاء عندما يتذكر، قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}⁴، قوله صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"⁵.

4. ضرورة تحصين النفس: يحصن الإنسان أمره من القلق أو الاضطراب حين يتدبر قوله تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}⁶.

¹-صحيح الترمذي، حديث رقم 2516.

²-إبراهيم: 27.

³-البقرة: 37-38.

⁴-البقرة: 214.

⁵-صحيح ابن حبان، حديث رقم 2896.

⁶-يوسف: 87.

5. التفاؤل وعدم اليأس: يجب أن يكون المؤمن متفائل دائماً لا يتطرق اليأس إلى نفسه، لقوله تعالى: {وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} ¹، وقال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} ².

6. توافق المسلم مع ذاته: يبدأ الفرد حياته العملية وهو يحمل رصيماً مناسباً من الأسس النفسية السليمة التي تمكنه من التحكم والسيطرة على نزعاته وغرائزه، وتمنحه درجة عالية من الرضا النفسي بفضل الإيمان والتربية الدينية الصحيحة التي توظف ضميره؛ وتقوي صلته بالله سبحانه وتعالى.

7. توافق المسلم مع الآخرين وفق ضوابط شرعية: تقوم الحياة بين المسلمين على التعاون على البر والتقوى؛ والتسامح الذي هو طريق المودة والتراحم؛ وكظم الغيظ والعفو عن الناس الذي هو دليل على تقوى الله عز وجل، قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} ³.

وخلاصة القول فالظواهر النفسية تعتبر من أقدم المشكلات التي عانى منها الإنسان في كافة مراحل تاريخه، وقد زادت في عصرنا الحالي لجنوح الكثيرين إلى تصورات خيالية وعاطفية لا تمتد الدين بصله، وتأكيداً على ذلك بدأ العالم الإسلامي يترنح في وطأة تلك المغامرات الخرافية بعيداً عن المقاصد التشريعية في بعض الأحيان، وبالرغم من أن الإنسان في أحيان كثيرة قد يخرج عن جادة الصواب، ويضيع وقته في متاهات الخرافة والشعوذة والدجل متصللاً بالضللال والانحراف، فالذي يتخذ من رسالات الرسل والأنبياء (عليهم السلام) طريقاً للشفاء من أمراض الأبدان والأنفس، ويتبع سبيل الهدى ويتخذ من الأسباب الشرعية الموجبة للشفاء، باستخدام المنهج الرباني هو الأكثر صحة في نفسه وعقله.

¹ - البقرة: 218.

² - البقرة: 185.

³ - فصلت: 34.

خاتمة :

أكدت الدراسة أن الظواهر السيكولوجية والاجتماعية يمكن أن تؤثر في شخصية الإنسان لأنه ابن البيئة فالمسألة لا تكمن في تأييد الدين للمعتقدات الدينية، ولا في إشكالية أو تشابك تفسير الدين للعلوم كما عرضها أولئك العلماء والفلاسفة، ولكن اغلب الظن أنها تكمن في شخصياتهم ومدارسهم الذين تخرجوا منها والعقيدة التي ينطلقون منها، وهذه كلها نوع من شبهات الغرب النصراني اتجاه الإسلام والمسلمين، لذلك نجد أن كل النظريات العلمية التجريبية عرضة للتعديل والتغيير والتحويل حتى إذا تم الوصول إلى حقائق علمية صارمة، هذا بخلاف الأحكام الشرعية القطعية الدلالة التي لا يمكن التشكيك فيها من قبل المتدينين أو من حيث أنها تحاول الإجابة عن الظواهر المادية والروحية معاً.

أهم التوصيات :

1. ضرورة ضبط الخطاب الديني عبر المؤسسات الدينية المختلفة.
2. بلورة الخطاب الإعلامي وفق مستجدات العصر دون تأثير على حتمية الدين.
3. ضرورة إنشاء منصات إعلامية لمخاطبة الوجدان الإسلامي.
4. ضرورة إنشاء مراكز تعنى بالصحة النفسية.
4. ضرورة صياغة مناهج تربوية وتعليمية بعيدة عن الاستلاب العقلي والفكري.

قائمة المصادر والمراجع :

1. أبادي، الفيروز، وآخرون (1419هـ)، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ط1.
2. ابن فارس، حمد (1399هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ط2.
3. ابن منظور (1988م)، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط2، ج2.
4. الأصفهاني، راغب (1373هـ)، المفردات في غريب القرآن، مكتبة دار العلم، القاهرة، ط1.

5. جينو، رينيه (1921م)، في مقدمته لدراسة المذاهب الهندوسية، مطبعة صوفيا بيرنيس، بريطانيا، ط2.
6. خليل حسن، سمير ابراهيم (2001م)، الدين خرافة أم علم، دار الساقى، بيوت، ط1.
7. دراز، محمد عبد الله (1970م)، الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط2.
8. دوكينز، ريتشارد (2006م)، وهم الرب، كتب بانتام، مكتبة جامعة نيويورك، نيويورك، ط1.
9. ديكارت رينيه (1960 م)، تأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة بوبزيميريل، ط3.
10. الرازي، أبو بكر (1968م)، المختار الصحاح تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد ومحمد عبد اللطيف، مكتبة الأمل، القاهرة، ط2.
11. الزكلي (2011م)، خير الدين خرافة، مكتبة العرب، بيروت، ط1.
12. السواح، فراس (2002م)، مغامرة العقل الأول، دار علاء الدين، دمشق، ط3.
13. السواح، فراس (2004م)، موسوعة تاريخ الأديان، دار علاء الدين، دمشق، ط1.
14. السيوطي، جلال الدين (1970م)، رشف الذلال من السحر الحلال، دار العلم، القاهرة، ط1.
15. شهاب، الدمشقي (2013م)، شبكة اللادينيين العرب، دمشق.
16. الشهاوي، مجدي محمد (1988م)، العلاج الرياني للسحر والمس الشيطاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1.
17. الشواف، قاسم (1994م)، ديوان الأساطير، دار الساقى، دمشق، ط1.
18. الطويل، توفيق (1964م)، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى، دار العلم، بيروت، ط3.
19. عاشور، سعيد عبد الفتاح (1966م)، أوروبا الوسطى، دار الجيل، بيروت، ط2.

20. عاشور، مصطفى (1986م)، عالم الجن أسرارهِ وخفياهِ، مكتبة الأمل، القاهرة، ط1.
21. عبد المعبد، محمد خالد (1936م)، الأساطير العربية قبل الإسلام، مؤسسة التأليف والترجمة، القاهرة، ط1.
22. عجينة، محمد (1994م)، موسوعة أساطير العرب، دار الفارابي، بيروت، ط1.
23. كابلان، برايان (2005م)، لماذا المعتقدات الدينية غير عقلانية، المقالة حول الدين واللاعقلانية بالإنجليزية، ط1.
24. كامبل، جوزيف (ب ت)، التحول المجازي للدين، مكتبة العالم الجديد، لندن، ط1.
25. كوتشون، راسل ماك (2001م)، الدين، مؤلفات جامعة نيويورك، ط1.
26. النشار، علي سامي (1949م)، نشأة الدين، دار نشر الثقافة، القاهرة، ط1.
27. نصر، صلاح (ب ت)، الحرب النفسية، دار الأمل، دمشق، ط1.
28. الهاشمي، طه (1963م)، تاريخ الأديان وفلسفتها، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1.
29. هاينمان (1966م)، أصل الحياة والموت، وأساطير الخلق الأفريقية، المكتبة الوطنية، القاهرة، ط1.
30. ولسون، كولون (1987م)، الإنسان وقواه الخفية، دار الأدب، بيروت، ط1.
31. يستين، جريج (2010م)، من الجيد أن تكون بدون إلهة، هاربركولينز، نيويورك، ط1.
32. يوسف، زيدان (2010م)، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، القاهرة، ط1.
33. Durkheim, Emile, 1956, The Elementary Forms of Religious Life. New York.
34. Ehret, Christopher, (2002) The Civilizations of Africa: a History to 1800. Charlottesville: University Press of Virginia.
35. Eliade, m, 1969, The Sacred and the Profane – harvest, New York.

36. Encyclopaedia of Britannia 1961:869.

37. Jerenny Gunn. the Complexity of Religion and the Definition of Religion in International Law (Harvard Human Rights Journal, vol 16 s 2003 issn 1057.

38. Karade, B (1994) The Handbook of Yoruba Religious Concepts. York Beach, MA: Samuel Weiser Inc.

39. Spencer Trimingham, 1962, History of Islam in West Africa. Oxford University Press.

التسامح الغربي وانعكاساته على الآخر: الإسلاموفوبيا بفرنسا أنموذجا

Western tolerance and its repercussions on the other - Islamophobia in France as a model-

ط. سليمان عبد الجليل/جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب

Slimani Abdel Jalil/University Mohammed I -Oujda Morocco.ET

Abstract:

The concept of tolerance is one of the concepts that have varied and varied trends and opinions, because it is an important human value, and for this reason tolerance can be seen as a step towards restoring fractured relations and mutual trust, as it contributes to solving many existing problems between others, and prevents many future problems. The concept of Islamophobia is the opposite because it is based on hatred and grumbling about the other, and accusations of terrorism, all of which are considered to be of great problems for the establishment of satisfactory and meaningful social relations, especially in light of the conditions and conditions experienced by immigrants in France (poverty, deprivation, lack of social recognition, feelings of inferiority and worthlessness). It makes Islamophobia and tolerance real problems faced by both these migrants and receiving communities.

Keywords: tolerance, other, Islamophobia.

ملخص:

يعتبر مفهوم التسامح من المفاهيم التي تعددت بشأنه وتنوعت الاتجاهات والآراء، ذلك لأنه يعد قيمة إنسانية مهمة، لهذا يمكن النظر للتسامح على أنه خطوة مهمة نحو استعادة العلاقات المتصدعة والثقة المتبادلة، كما يسهم في حل الكثير من المشكلات القائمة بين الآخرين، ويمنع حدوث الكثير من المشكلات المستقبلية. كما يسير مفهوم الإسلاموفوبيا نقيض ذلك لأنه مبني على كراهية الآخر والتدمير منه، واتهامه بالإرهاب والتي تعد جميعاً ذات إشكاليات كبيرة لإقامة علاقات اجتماعية مرضية وهادفة، خاصة في ظل الظروف والأوضاع التي يعيشها المهاجرون في فرنسا (الفقر والحرمان وعدم الاعتراف الاجتماعي، الشعور بالدونية وعدم القيمة). حيث يجعل من قضية الإسلاموفوبيا ومبدأ التسامح مشكلات حقيقية يواجهها هؤلاء المهاجرين والمجتمعات المستقبلية على السواء.

الكلمات المفتاحية: التسامح ، الآخر، الإسلاموفوبيا.

مقدمة:

تتصاعد أعمال العنف والإرهاب يوميا على المستوى العالمي، لكن الدعوة إلى قيم التسامح تزداد وترتفع في السنوات الأخيرة، حتى أصبحت لازمة في الخطاب السياسي الرسمي للكثير من الأنظمة، وفي خطاب معارضيهما، على حد سواء. ويرتبط «التسامح»، بمعناه السائد حالياً، بقيم وممارسات إيجابية تهدف إلى إرساء السلم المجتمعي، والسلام العالمي، والتعايش مع الآخرين، وبالتالي ليست المفردة ولا الخطاب الذي تحيل إليه حديثين بالطبع.

فمنذ بروز ما يسمى "بالحرب على الإرهاب"، الذي أعقب الحادي عشر من سبتمبر، وانهار برج التجارة العالمية نتج عنه انهيار لمجموعة من المفاهيم والتصورات الفكرية والثقافية، ومن بينها مفهوم التسامح.¹

فبالرغم من كونه موضوعاً شائكاً، لازتباطه بقضايا معقدة كالإرهاب، إلا أنّ الكثير من المسلمين في البلدان الغربية يشكون من الإسلاموفوبيا، و من العنصرية، ومن الأفكار النمطية والأحكام المسبقة المعادية للإسلام. مردُّ ذلك، بالنسبة إليهم، التصوُّر الخاطئ الذي يحمله الغربُ عن الإسلام والمسلمين.

¹ ينظر: <https://www.trtarabi.com/explainers/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7>

وبنفس المنطق سبق للغرب أن تعامل مع الآخر في أمريكا اللاتينية وفي جنوب شرق آسيا وفي شمال وشرق أوروبا، ولكن للعربي المسلم نكهة خاصة في التعامل معه بهذا المنطق الانعكاسي. فالناظر في المسلم: لفظاً، وفرداً، وفكراً، يتبين له بكل يسر أن هذا المصطلح يكاد يترادف مع مصطلح الإنكليزي، والفرنسي، والألماني: وجميعاً تعني "الآخر"، وإن كانت صورة هذا المسلم- الآخر "صورة تمثيلية تصنع صناعة، وليست مطابقة وجوباً للمعطيات الموضوعية المكونة "للمسلم" في حد ذاته: لفظاً وفرداً وفكراً. وحيثما قلبنا تلك الصورة فإننا سنجد أنفسنا في مجال "الأخرية" في أبهى تجلياتها.¹

ليأتي الإسلام كذلك، في كل الدراسات التي تم اختيارها، يمثل مركز الأخرية الدينية والحضارية والثقافية بامتياز. وتوظف لتدعيم هذه الأخرية جملة من الآليات العاضدة التي تسعى إلى إخراج الدين في هيئة تلائم ما يرغب الغربي في سماعه. وتتفاعل الدروس الأكاديمية مع مراكز البحث الاستراتيجية والبرامج الإعلامية حتى تكون هذه الصناعة دقيقة فاعلة ومؤثرة.²

هل الإسلاموفوبيا سبب للإرهاب أم نتيجة له؟ سؤالٌ جوائبه معقدٌ كذلك. لكنّ ما هو مؤكّد، بالنسبة للمسلمين في الغرب، هو أنّها موجودة، وجعلتهم يعيشون ظروفاً صعبة وإقصاءً اجتماعياً كبيراً، بل إنّها أدت إلى ضرب الكثير من المكتسبات الحقوقية للبلدان الغربية أيضاً.

أولاً: تحديد مفهوم التسامح والإسلاموفوبيا.

لقد أصبحت المصطلحات أدوات في الصراع الحضاري والفكري بين الأمم، وفي داخل الأمة الواحدة، إذ يهتم أعداء أي مبدأ أو فكر في صراعهم مع المبادئ الأخرى بالألفاظ والمصطلحات، وحين يكون القوم معادين للحق، فإنهم يحرفون الألفاظ والمعاني، ويغيّبون القول الحق فيها، وإنما كان المصطلح أداة في الصراع، لأنه الوعاء المعبر عن

¹ - المبروك الشيباني المنصوري، صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراف إلى الإسلاموفوبيا. مركز نماء للبحوث والدراسات - القاهرة - مصر، طبعة: 2021، ص 12.

² - المبروك الشيباني المنصوري، صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراف إلى الإسلاموفوبيا. مركز نماء للبحوث والدراسات - القاهرة - مصر. طبعة: 2021، ص 206-234.

العقيدة، أو الفكر، أو الرأي ولذلك فإن كسر ذلك الوعاء غرض رئيس للمعادين، كما أن إفساد المصطلح، أو تغييره يمثل خطورة كبرى على العقائد، أو الآراء أو الأفكار لأي أمة.¹

ومن أظهر الأمثلة على ذلك في العصر الحديث «مفهوم التسامح ومفهوم الإسلاموفوبيا» اللذان نشأ في الغرب، حيث يجمع أغلب دراسي المفهومين على صعوبة ضبط معانيهما ودلالاتهما، ولا يتعلق بالدلالات الفلسفية الاصطلاحية، التي ارتبطت بهما خلال مراحل تشكلهما وتطورهما سواء في المجال الاجتماعي أو في الفلسفات التي حاولت وضع حدود لمعانيهما، بل أن الأمر يتجاوز الدلالية المصطلحية نحو الدلالات اللغوية العامة التي تحملها كل مفردة.

1-1: التسامح: مفهوم محير وملتبس

فقد بين المفكر الفرنسي "بول ريكور" في المقاربة التي ركبها لمفردة التسامح اعتمادا على بعض معاجم اللغة الفرنسية، أن الطابع المبسط للدلالة كما تقدمها بعض هذه المعاجم، يساهم في مزيد من غموض المفهوم وصعوبته.²

وهذا ما حدا "بلالاند" عند مناقشته لمفهوم التسامح والذي لم يقبله إلا بتحفظ، إلى القول: " كلمة التسامح تتضمن في لساننا فكرة اللياقة، وأحيانا الشفقة، اللامبالاة أحيانا أخرى، فهي تتضمن أكثر معان من قبيل: الازدراء، التعالي، الطغيان، ويبدو في الأمر شيء من الازدراء عندما نقول لشخص أننا (نتسامح) فيما يفكر فيه، فهذا معناه " أن ما تفكر فيه لا قيمة له لكني أوافق على إغماض عيني"، وأما الفيلسوف الكانطي الجديد (أميل بوترو) فيقول: " لا أحب كلمة تسامح هذه، فلنتحدث عن الاحترام والتواد والحب، أما التسامح فهي مهينة للإنسانية، فلذلك يعني أنني أمنحك الحرية في الوقت الذي تعبر فيه الحرية حقا لأننا، والأخر لا يحب المساس بها."³

¹- عبد الرحمان بن معلا اللويح، توظيف المصطلح في الصراع الحضاري (مصطلح الإرهاب أنموذجا)، -مجلة جامعة الإمام (العدد 44)شوال 1424، ص309.

²- عماري مصطفى، إشكالية التسامح في الفكر الغربي والفكر العربي: محاولة في التركيب. مجلة البدر المجلد 10، سنة 2018، جامعة بشار. ص: 117.

³- ينظر: عبد الله محمد علي الفلاحي، التسامح وأبعاده الحضارية في الفلسفة الغربية. قراءة نقدية لإشكالية العلاقة بين النظرية والممارسة، مجلة العالم الاستغراب العدد 22، 2021، ص: 301.

بل إن ظهور الفكرة نفسها في الغرب أو في الحضارة الغربية الحديثة العلمانية على الأقل، جاءت وليدة حاجة، ولم تكن وليدة ثقافة تتجسد عبر الممارسات السلوكية لمكونات المجتمع الغربي دولاً وجماعات وأفراداً، وهذه الحاجة المتولدة جاءت بعد معاناة من قضية اللاتسامح الديني، والصراع الاجتماعي، والتكالب على السلطة والاستغلال الاقتصادي، واضطهاد الأطفال، والأقليات، والأجناس.

ويخلص سمير الخليل إلى أن كلمة التسامح " ليست واحدة من تلك الكلمات التي تم النضال بشأنها خلال القرن التاسع عشر أو حتى في القرن العشرين"، فبسبب من الأسباب تم تجاهل هذه الكلمة، وتم تجاوزها، أو بالأحرى اكتفى بمجرد النظر إليها على أنها من نافل القول، كما أنها لا تعبر في حقيقة أمرها عن شيء... فلم يكن للتسامح من يفكر به أو ينطق باسمه.¹

فنحلل مثلاً كلمة التسامح في اللغة العربية ونقارنها بمفهوم «tolérance»، بالفرنسية والانجليزية، فالتسامح في العربية يجمع بين مادة الكلمة من سمح، وصيغة الاشتراك، فيفيد إذن علاقة متبادلة بين الأفراد والفئات تتعلق بمضمون التسامح، في هذا المضمون لا بد أن نجد إشارة إلى بعد سلبي، يتمثل في أن العلاقة الأولى في العلاقات البشرية مستندة إلى عنف، فالتسامح هو تحرر من العلاقة الطبيعية بين البشر.

إذن فأول معنى للتسامح، هو الانتقال من الوازع الخارجي، الذي تمثله السلطة المادية للدولة، إلى الوازع الباطني، الذي يمثله الاعتراف بحقوق الآخر، والتعامل على أساس هذه الحقوق من الآخر، تأسيساً للعلاقة السلمية به، وتأسيساً للإمكانية الحوار معه، في حين أن كلمة «tolérance»، تعني نوع من قبول الآخر على مضض، لأن فيها شيء من أن أعطي لنفسي سلطة تجعلني أقبلك على صفاتك التي عندك، رغم أنني الذي أملك الحقيقة ولكنني أحتملك، «tolérance» يعني احتمال الآخر، وليس التسامح معه.²

وسواء أخذنا التسامح على معنى التحمل اللاتيني أو على المعنى العربي، يظل التسامح فضيلة إما مستحيلة التحقق رغم ضرورتها مثلما ذهب إلى ذلك الفيلسوف برنارد ويليمز، (أستاذ الفلسفة العملية بجامعة كامبريدج)، في

¹ - ينظر: عبد الله محمد علي الفلاحي، التسامح وأبعاده الحضارية في الفلسفة الغربية. قراءة نقدية لإشكالية العلاقة بين النظرية والممارسة، ص 286، مجلة الاستغراب، 2021.

² - ينظر: مجموعة مؤلفين، التسامح ليس منة أوهبة، دار الهادي، لبنان، 2006، ص 221.

نص بعنوان «هل التسامح فضيلة؟» أو أنها صعبة لكنها ضرورية كما ذهب إلى ذلك الفيلسوف "طوماس سكولن"، (أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد) في كتاب بعنوان «صعوبة التسامح»، وتتمثل مفارقة التسامح في نظر وليمز في أنه ضروري كلما كانت هناك مجموعات اجتماعية لها قيم أخلاقية وسياسية ودينية متعارضة في حين أنها تدرك أن استمرارها في العيش سوية وتجنبّ الصدام والحرب يقتضي التسامح مع بعضها.1

فلنأخذ مثلا المجال السياسي الذي يهمننا، نجد المفهوم أضحى مشكلة عويصة، فان كان مفهوم التسامح يمثل لبعضهم مفهوما سحريا، يكمن سحره في كونه يفضي إلى تعايش مشترك سلمي، قائم على اعتراف متبادل ومساواة سياسية بين المعنيين به، نجده يمثل بالنسبة للآخرين مقابلا للسلطة والهيمنة والإقصاء، والملاحظ أن هذا الغموض الذي يحيط بمفهوم التسامح ليس بظاهرة جديدة ومعاصرة، يكفي أن نعود ونستحضر النقاشات الكلاسيكية التي دارت حول المفهوم في عصر التنوير، لنجد أن النقد الذي وجهه غوته لمفهوم التسامح يعكس هذا الالتباس، "فالتسامح ينبغي أن يكون مؤقتا فقط، يجب عليه أن يقود إلى الاعتراف، إنه إهانة"، وهو ما كان يقصده "كانط" في الوقت الذي انتقد "الطابع المتغطرس" والمتعجرف للتسامح، كما أن هذا الشكل من التسامح الذي كان سائدا هو الذي دفع بالكاتب "مير ابو" للقول بأن التسامح هو علامة على الاستبداد والطغيان.2

ففي عام 1965، صدر كتاب بعنوان "نقد التسامح الخالص" يحتوي على مقالات ثلاث حررها ثلاثة فلاسفة، هم: روبرت بول فولف وبارنجتون موروهيربرت ماركيزوز، ومع تباين آرائهم إلا أنهم متفقون على أن التسامح، نظرياً وعملياً، ما هو إلا قناع يخفي حقائق سياسية تتسم بالرعب والفرع، وخلاصة رأيهم أن التسامح ينطوي على نقيضه وهو عدم التسامح وهذه هي إشكالية التسامح، التي تحلق بقوة كالروح المستحضرة في سماء النقاش الأكاديمي الدائر في أوروبا اليوم.

يرى دارس مثل "هايد" أن التسامح فضيلة متملصبة عصية على التحديد رغم أنها تحتل مركزا أساسيا في الفكر السياسي والأخلاقي الحديث والمعاصر، فإيماننا الجازم بقيمة التسامح على الصعيد العملي سواء في الحياة الأخلاقية

¹ - منير الكشو. مفهوم التسامح: صعوبة التعريف وتحولات الواقع. قسم الدراسات الدينية، مجلة مؤمنون بلا حدود. 21 يناير 2019، ص: 10.

² - عاطف علي، إشكالية التسامح، مجلة التسامح، العدد: الثامن عشر، (2007م)، ص: 8.

الفردية أو على الصعيد السياسي في تدبير الحكم وفي إدارة الخلاف على نحو حكيم لا يقابله يقين مماثل على الصعيد النظري سواء تعلق الأمر بالتحديد المفهومي أو بالحجاج لصالحه.

فعلى خلاف ما هو الأمر في مجالات مثل الحقوق والواجبات التي يختلف الناس فيها وفي تحليل مفاهيمها وتسويغها لكنهم يسترشدون بجملة من الأمثلة والحالات المتفق حولها، في مجال التسامح يصعب العثور على حالة واحدة يُتفق عامة على أنها تشكل نموذجا يُسترشد به لحل الخلافات في حالات مثيلة، فالاتفاق حول الحالات النموذجية للحقوق والواجبات يستند عموما إلى إعلانات حقوق الإنسان العالمية أو الإقليمية أو الوطنية وإلى ما كرسه التجارب الدستورية لعدد الأمم في باب الحريات والحقوق.

من هنا يتضح لنا أن فلاسفة السياسة قد انقسموا إلى اتجاهين لا ثالث لهما اتجاه التسامح السياسي، هما: الاتجاه المؤيد للتسامح السياسي، والاتجاه الرفض له، نظرا لصعوبة تحقيقه على أرض الواقع. ومن أبرز ممثلي الاتجاه المؤيد للتسامح السياسي -على سبيل المثال لا الحصر- نجد "رولز" الذي أكد على أهمية التسامح السياسي، إذ يرى أنه من غير المعقول أن نستخدم القوة السياسية إذا أتيحت لنا الفرصة، أو أن نمنع وجهات النظر الشمولية التي تتمتع بالمعقولية، لذا وجد أن ما ينبغي علينا هو التسامح السياسي فحسب.

أما الاتجاه الثاني، والذي يجد صعوبة في تحقيق التسامح السياسي على أرض الواقع، أو على الأحرى الرفض للتسامح السياسي، فنجد أن من أبرز ممثلي هذا الاتجاه - على سبيل المثال لا الحصر - هو "وليامز" الذي ينظر إلى التسامح السياسي على أنه قيمة مؤقتة تؤدي دورا مهما بين ماض لم يسمع الناس عنه، ومستقبل لن يحتاج إليه من هم على قيد الحياة الآن، الأمر الذي جعله يؤكد على أن القول بأن اللاتسامح السياسي سوف ينتهي من هذا العالم، وهو أمر لا يصدق على الإطلاق.

ومن جهة أخرى يتعارض مفهوم التسامح مع مواقف تبدو أحيانا متداخلة معها مثل القبول والاحترام، فقد أقبل بعبادات أحد الجيران في العيش أو الطقوس والشعائر الدينية التي يتعاطاها غير أن ذلك لا يندرج ضمن خانة التسامح وإنما ضمن خانة احترام الآخر وحقه في الاختلاف، فالأقليات المسلمة في فرنسا مثلا تجد نفسها في وضع

دوني حينما تدرج في خانة الأقليات المتسامح معها لذلك ترفض التسامح وتطالب لنفسها اليوم بالحق في الاحترام والتقدير المتساوي مع الأغلبية المسيطرة وكذلك الاعتراف لها بالحق في أن تكون مختلفة.

ومهما يكن من أمر، فإن مناهضي التسامح الغربي كثير، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على رفضهم واعتراضهم على طريقة استعماله، هذا لا يعني أننا رفضنا التسامح الأخلاقي والحقوق التي تبنته الأمم المتحدة، بل أن هناك ميل إلى قبوله لدى الكثير من البشر، فقد حدد إعلان مبادئ التسامح الصادر عن اليونسكو في سنة 1995، التسامح، بأنه: "ليس فقط مجرد التزام أخلاقي وإنما أيضاً ضرورة سياسية"¹، إلا أن تلاعب الغرب بمفهوم التسامح واستغلاله من أجل السيطرة والنفوذ والظلم والاستبداد جعلنا نرفضه.

2-1: مفهوم الإسلاموفوبيا وأشكاله.

1-2-1: مفهوم الإسلاموفوبيا.

أصبح استعمال الإسلاموفوبيا بعد 11 سبتمبر دارجا على لسان الجميع في الدول الغربية، وفي هذا السياق، يرى المفكر المغربي حسن أوريد أنه "لا يمكن الحديث عن إسلاموفوبيا قبل أحداث 11 سبتمبر، إذ بعدها مباشرة صدرت كتاباتٌ تهجّم مباشرةً على الإسلام، وتعتبر أنّ الإسلام هو العدو، وخصوصاً في أوروبا.

ففي أوروبا مثلاً، ظهر في أكتوبر 2001 مفهوم "الإسلاموفوبيا" على الموقع الإلكتروني لكل من المرصد الأوروبي لظواهر العنصرية ومعاداة الأجانب بفيينا "EUMC"، والشبكة الأوروبية ضد العنصرية ENAR، أما في فرنسا ففي سنة 2003 عرفت تنظيم يوم دراسي في موضوع:

"du Racisme anti-arabe à l'islamophobie" من قبل منظمة الحركة ضد العنصرية ومن أجل الصداقة بين الشعوب MRAP. كما سيتشكل التجمع ضد الإسلاموفوبيا بفرنسا CCIF الذي أصدر أول تقاريره في 21 أكتوبر 2004، كما كان الوزير الأول الفرنسي السابق "j.pierre.rafarin" قد استخدم المفهوم في كلمة له بمناسبة افتتاح المسجد الكبير بباريس في 17 أكتوبر من السنة نفسها، أما أكثر التعاريف شيوعاً وتبنيها من قبل

¹ - حسني إبراهيم، التسامح: الدلالات اللغوية والجذور التاريخية والمضامين المعاصرة - أطلع عليه يوم: 2022/11/16.

الباحثين فيعود للمركز من أجل تكافؤ الفرص ومواجهة العنصرية والذي جاء فيه: "الإسلاموفوبيا كراهية ورفض لإسلام مختزل في كيان شرير بينما الإسلام هو متعدد على المستوى الاجتماعي، الجغرافي، التاريخي والثقافي. هذه الكراهية تتغذى على أحكام مسبقة وقوالب جاهزة سلبية تمارس غالبا خلطا بين مفاهيم متعددة: إسلام، عرب، مسلم، إسلاموي، إرهابي، أصولي...من جهة وبين ثقافة ودين من جهة أخرى.

والجدير بالذكر، أن "الإسلاموفوبيا" لا تمثل تهديدا للمسلمين فحسب، وإنما تهديدا لمبادئ العدالة والمساواة والحرية نفسها، تماما بقدر ما تمثل تهديدا للأمن والوئام الاجتماعي، إنها تدوس على إنجازات البشريّة لتحقيقها قرونا عدة، فضلا على أنها تضرب عرض الحائط المساعي البشريّة والتضحية التي أنشئت على أساسها مؤسسات دولية لضمان الحفاظ على إنجازات البشريّة.¹

وتجلى ذلك بوضوح في خضم الأزمة الاقتصادية التي أرخت بظلالها على القارة الأوروبية عام 2008، وأدت هذه الظرفية الصعبة بدورها إلى احتدام النقاش الداخلي حول قضايا ساخنة مثل المهاجرين وغير الأوروبيين والإدماج والاندماج، والهوية الوطنية وما إلى ذلك، التي تفاقمت بسبب زيادة عدد اللاجئين الذين فروا من ويلات الحروب الأهلية في بعض البلدان الإسلامية، والوتيرة الدورية للهجمات الإرهابية التي ضربت القارة، وهياً كل هذا وذاك المناخ المناسب لازدهار الأحزاب اليمينية وظهور شخصيات ذات الأفكار المتطرفة، وازدياد زحمها في ظل سياسات الاتحاد الأوروبي المتعلقة بالاندماج التي تعرضت لانتقاد واسع واعتبرت سببا في تأزيم الأوضاع، كل ذلك شكل أرضية خصبة للحركات المناهضة للاتحاد الأوروبي والمناهضة للهجرة والمعادية للمسلمين، مما أدى إلى انتشار الإسلاموفوبيا في جميع أنحاء أوروبا.²

وإذا كانت حملة مناهضة الإسلام التي قادتها شخصيات اليمين المتطرف في أوروبا شرسة إلى حد بعيد، فإن ما يستدعي القلق بالفعل هو أن الإسلاموفوبيا أصبحت مقبولة سياسيا وشعبيا سواء بالنسبة للرأي العام أو الإعلام.³

¹ - التقرير الثاني عشر لمرصد منظمة التعاون الإسلامي حول الإسلاموفوبيا، يونيو 2018-فبراير 2019، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة مارس 2019، ص:5.

² - التقرير الثاني عشر لمرصد منظمة التعاون الإسلامي حول الإسلاموفوبيا، يونيو 2018-فبراير 2019، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة مارس 2019، ص:5.

³ - مثل إعادة نشر مجلة "شارلي إيبدو" لرسومات ساخرة من النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا ما أكدته التقرير الأوروبي عن الإسلاموفوبيا لعام 2020، حيث اعتبر ظاهرة الإسلاموفوبيا أخذة في الارتفاع في أوروبا. جاء في التقرير: "بالنظر إلى السنوات الست الماضية نرى أن العديد من المراقبين يتفقون بالإجماع على أن حالة الإسلاموفوبيا في أوروبا لم تتحسن بل تفاقمت، هذا إن لم تصل إلى نقطة تحول"، ويفصل التقرير عدد الجرائم التي وقعت ضد المسلمين في عام 2020، من الاعتداءات اللفظية والجسدية إلى الشروع في القتل، ومن بين البلدان المدرجة في التقرير، أبلغت ألمانيا عن 908 جرائم، وهي بولندا (664)، وهولندا (364)، والنمسا (256)، وفرنسا (121)، والدانمرك (56)، وبلجيكا 36، بما فيها فرنسا التي سجلت 235 جريمة معاداة للإسلام في عام 2020، مقارنة بتسجيل 154 حالة في عام 2019، أي بزيادة بلغت نحو 14%، هذه الأرقام وإن كانت لا تعكس بالضرورة حيثيات الوضع بالنظر إلى صعوبة رصد كل هذه الأفعال خصوصا تلك الموجهة ضد الأفراد يصرح التقرير المذكور، فإن من شأنها أن تقدم رقدا موثقا لظاهرة الإسلاموفوبيا التي أصبح يحذر منها مجموعة من الخبراء والحقوقيين بأوروبا.

2-2-1: أشكال الإسلاموفوبيا

سأقتصر على ذكر نموذج واحد: فرنسا، وذلك لعدة اعتبارات:

- تعتبر فرنسا أكثر الدول جدلا فيما يتعلق بدراسة الظاهرة لعدة أسباب، أهمها أن بها أكبر جالية للمسلمين، حيث يقدر عدد المسلمين في فرنسا مثلا بنحو: 6 بالمائة من السكان ما يعني نحو 4.5 مليون شخص بالغ في فرنسا يعتنقون الإسلام، وفق لتصريحات مستشار الرئيس الفرنسي حكيم القروي.
- أشارت تقارير وأخبار إلى زيادة مثيرة للقلق لجرائم الكراهية ضد أفراد ينظر إليهم على أنهم مسلمين، فضلا عن ارتفاع عدد الهجمات على المساجد والمراكز المجتمعية، لاسيما في فرنسا، وما انفك التمييز والتعصب ضد المسلمين يتزايدان منذ يونيو 2018 إلى يومنا هذا.¹
- ظاهرة الهجرة أدت بدورها إلى تنامي الخوف من الآخر وتشويه صورته لدى غالبية السكان في أوروبا.

¹ - التقرير الثاني عشر لمرصد منظمة التعاون الإسلامي حول الإسلاموفوبيا، يونيو 2018-فبراير 2019، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة مارس 2019، ص10.

ثانياً: الإسلاموفوبيا بين الواقع الاجتماعي والهاجس السياسي الفرنسي

1-2: رصد واقع الإسلاموفوبيا في المجتمع الفرنسي:

تحظى ظاهرة الإسلاموفوبيا باهتمام كبير لدى الباحثين على مستوى أوروبا ولكن نجد أن فرنسا أكثر الدول جدلاً فيما يتعلق بدراسة الظاهرة لعدة أسباب، أهمها أن بها أكبر جالية للمسلمين في القارة، وبحسب ياسر اللواتي وهو رئيس "لجنة العدالة والحريات للجميع"، وتعنى بالدفاع عن حقوق المسلمين، ونشر التوعية حول الإسلاموفوبيا في فرنسا، فإن حدة الانقسام بدأت تظهر مع صعود خطاب اليمين المتطرف في فرنسا قبل سنوات، كرد فعل على اندماج المسلمين في المجتمع الفرنسي، وبروزهم للحديث علناً، من دون الفصل بين إسلامهم وجنسيّتهم الفرنسية".

فيحسب ما أوردته (BBC) في موقعها بتاريخ 29 نوفمبر 2020 تحت عنوان "المسلمون في فرنسا: كراهية ممنهجة أم سوء فهم؟" جاء فيها: "وجد المسلمون الفرنسيون أنفسهم، خلال الأسابيع الماضية، أسرى لنقاش سياسي وعقائدي مُستعر، حول حقوقهم، وحرياتهم، وقبل كلّ شيء، حول حياتهم اليومية كأفراد، في خضم معارك بين خطابين: فمن جهة، يخشى البعض من سعي الدولة الفرنسية لإيجاد حلول جذرية للهجمات المتطرفة المتتالية، عبر وضع المسلمين كافة على أراضها، في سلّة واحدة، مع جماعات تستخدم العنف.

وقد تعزز هذا الخوف بعد تعاطي الشرطة الفرنسية العنيف مع متظاهرين كانوا يحتجون على قانون "الأمن الشامل" الذي تثير بعض بنوده القلق، لناحية تقييد الحريات، في المقابل يرى البعض أنّ ردّ المسلمين الغاضب في أنحاء العالم بإعلان مقاطعة المنتجات الفرنسية، احتجاجاً على معالجة الدولة الفرنسية لإعادة نشر مجلة "شارلي إيبدو" لرسومات ساخرة من النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قد يسهم في استخدام حقوق المسلمين في فرنسا كأداة في صراع سياسي، ففي فرنسا ازدادت الأعمال العدائية ضد المسلمين، بما في ذلك إطلاق النار والاعتداءات الجنسية والإحراق المتعمد لأماكن العبادة وتدنيسها خلال شهر رمضان المبارك.²

¹- شيماء عز العرب . فرنسا.. "الإسلاموفوبيا" وتمدد اليمين المتطرف، اطلع عليه يوم: 2020/03/12، المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات فرنسا.. الإسلاموفوبيا " وتمدد اليمين المتطرف (europarabct.com)

² - تقرير مرصد فرنسا الوطني ضد الإسلاموفوبيا. أطلع عليه يوم: 2020/03/13: <https://www.bbc.com/arabic/world-55102301>

وفي تقريره الصادر العام الحالي سجّل "التجمع ضدّ الإسلاموفوبيا" في فرنسا، ارتفاعاً بنسبة 77 بالمئة في الاعتداءات على خلفية كراهية دينية، على مسلمين، بين عامي 2017 و2020، ورصد التجمّع سنة 2019، نحو 789 فعلاً يندرج تحت مظلة كراهية المسلمين، يقول إنّ 59 بالمئة منها صدر عن مؤسسات حكومية، وهذا التجمّع أعلن عن حلّ نفسه، ونقل أنشطته إلى خارج فرنسا، بعد أن اتهمه وزير الداخلية جيرار دارمانان بأنّه "بؤرة إسلاميّة"¹.

كما أصدرت منظمة "كيج Cage" الحقوقية البريطانية تقريراً جديداً اتهمت فيه فرنسا باستهداف سكانها المسلمين استهدافاً منهجياً بمجموعة من السياسات التي استحدثتها إدارة الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون للتصدي لما يُسمى "الانفصالية والإسلاموية"، وما قضية الرسوم الكاركاتيرية إلا جزء من هذه السياسة الممنهجة التي جاءت في سياق حملة ضد كثير من الممارسات والطقوس والعادات ذات الصلة المباشرة بالإسلام، وما قضية الحجاب كذلك إلا حلقة أخرى في سلسلة التصعيد تلك، ولذا ينبغي إدراج كثير من الأحداث المسيئة للإسلام في فرنسا ضمن توجه عام يكشف عن مرحلة جديدة في التعامل مع الإسلام وقضاياها بشكل صريح ومباشر.

فقد ذكر موقع Middle East Eye² البريطاني إن استخدام ماكرون سلطاته التنفيذية لإقرار ما يسميه التقرير سياسات "تعويق منهجية" فرضت على الجماعات والمؤسسات الإسلامية في فرنسا على مدى السنوات الأربع الماضية. إذ كان الهدف المعلن في البداية لتلك السياسات التي صيغت في عام 2017 هو معالجة الأسباب التي تدفع بعض الفرنسيين المسلمين من مناطق معينة في فرنسا إلى ترك البلاد والالتحاق بالتنظيمات المسلحة في سوريا والعراق، ثم تحوّل الأمر بعد ذلك إلى مشروع وطني يرمي إلى التصدي لـ «الإسلاموية» ومكافحة ما سمّاه نزعاً "الانسحاب من المجتمع والانعزال عنه" في جميع أنحاء البلاد.³

منذ ذلك الحين، أقرّت فرنسا مجموعة من القوانين المثيرة للجدل التي وصفها منظمات حقوقية كثيرة بأنها معادية للإسلام، ومن أبرزها قانون مكافحة النزعة الانفصالية وما يُعرف بوثيقة "ميثاق الإمام" التي يُفرض على المساجد والمؤسسات الإسلامية اعتمادها.

¹ -<https://arabic.rt.com/world/1175427%D9%88%D8%B2%D9%8A%D8%B1>

² - France: Macron accused of using powers to 'systematically' persecute Muslims

³ -<https://www.middleeasteye.net/news/france-macron-accused-powers-systematically-persecute-muslims>

ومع تغير المشهد السياسي في أوروبا خلال العقدين الماضيين نتيجة المد الشعبي الذي اجتاحت أوروبا بشكل عام وفرنسا على وجه خاص، والصعود غير المسبوق للأحزاب اليمينية المتطرفة أدى الأمر إلى تأزيم الوضع وجعل المسلمين يعيشون الرعب، ففي لقاء تلفزيوني مع قناة BFMTV²¹ قال المرشح للانتخابات الرئاسية الفرنسية، اليميني المتطرف إيريك زمور، إنه "يرحب بالمهاجرين البيض المسيحيين القادمين من أوكرانيا، على عكس المهاجرين العرب والمسلمين البعيدين عنا كثيراً"، حسب تعبيره.

وعندما سألتها المذيعة: "هل تقول نعم للمهاجرين البيض المسيحيين، ولا للمهاجرين العرب المسلمين؟"، ليجيب: "بالتأكيد نعم، وبكل وضوح".

وحيثما واجهته المذيعة قائلة إن "المعاناة واحدة"، رد قائلاً: "نعم، والإنسانية واحدة وكل شي واحد، كلنا بشر، لكن ما أقوله هو أن أناساً قريبون منا وآخرين بعيدون عنا"، وتابع: "ما نشهده اليوم، والجميع صار يفهم، أن المهاجرين العرب والمسلمين بعيدون عنا كثيراً، وهو ما يؤدي إلى صعوبة اندماجهم وثقيفهم في مجتمعاتنا، أي إننا أقرب إلى الأوروبيين المسيحيين"، ويذهب زمور بخطاباته بعيداً إلى مسألة "الهوية" ومحاربة الإسلام، وأدين مرتين بالتحريض على الكراهية.

وكشف عن سياسته المرتقبة تجاه المسلمين، في حال فوزه بالرئاسة، قائلاً في تصريحات متكررة: "سأمنع الحجاب وأوقف الأذان وأغلق المساجد الكبرى، فهي تعني غزو فرنسا"، كما توعد زمور المسلمين بأنه سيمنعهم من تسمية أبنائهم باسم "محمد"، بقوله في سبتمبر/أيلول 2021: "إذا أصبحت رئيساً لفرنسا سيحظر اسم محمد على الفرنسيين"، وتابع أنه سيفعل "القانون 1803 في فرنسا"، الذي يحظر على الفرنسيين تسمية أسماء غير فرنسية، كما ألمح، في تصريحات صحافية، إلى اعتزامه منع متاجر "الجزارة الحلال" التي تخدم المسلمين.

¹ _ مرشح لرئاسة فرنسا: نعم للمهاجرين البيض المسيحيين ولا للعرب والمسلمين. أطلع عليه يوم: 2022/12/12 / <https://nabd.com>

وفي فبراير/ شباط الماضي، قال زمور إن فرنسا "ستستغني عن الأطباء الجزائريين" في حال فوزه بالرئاسة، وجاء هذا التصريح بعد نجاح 1200 طبيب جزائري من أصل 2000 مرشح في مسابقة تمكنهم من ممارسة مهنتهم في فرنسا.¹

2-2: حضور هاجس الإسلاموفوبيا في الانتخابات الرئاسية الفرنسية.

والغريب في الأمر إن الحزب السياسي الحاكم في البلاد رغم انه لا ينتمي إلى تيار اليمين المتطرف، إلا أنه في ظل احتجاجات "السترات الصفراء" التي اجتاحت البلاد، قال الرئيس ماكرون في احد تصريحاته انه من الضروري الانخراط في نقاش وطني موسع لمعالجة قضية الهجرة، غير المواطنين الفرنسيين لم يسقطوا في هذا الفخ وشددوا على أن قضايا الهجرة لم تكن على الإطلاق مدرجة ضمن مطالب حركة السترات الصفراء.²

ووفق متابعين للحملات الانتخابية، يتنافس زعماء التيار اليميني، وهم إريك زمور ومارين لوبان وفاليري بيكرس، على من منهم سيكون "الأكثر عداءً وتطرفاً ضد المسلمين والمهاجرين"، ولم يكن ماكرون بأقل منهم وقاحة اتجاه المسلمين.

جاء في افتتاحية صحيفة (رأي اليوم) اللندنية تعليقا على حملة ماكرون على الإسلام والمسلمين بفرنسا قول كاتبها: منذ أن جاء الرئيس الفرنسي ماكرون إلى قصر الإليزيه وشغله الشاغل هو التطاول على الدين الإسلامي بطريقة استفزازية غير مسبوقة، وتضيف الصحيفة أن ماكرون يدعي أنه يفرق بين الإسلام المعتدل والإسلام المتطرف ولكنه في واقع الأمر يعادي الاثنين ويتبنى تصنيع الخوف والاستثمار في (الإسلاموفوبيا).

في الثاني من شهر أكتوبر 2020 ألقى ماكرون رئيس الجمهورية الفرنسية خطابا شن فيه حملة شعواء على الإسلام قائلا: (إن الإسلام ديانة تعيش اليوم أزمة في كل مكان في العالم)، وأعلن في هذا الخطاب عن خطته التي جرى الحديث عنها مرارا لمحااربة (النزعات الانفصالية) في المجتمع الفرنسي وتتضمن هذه الخطة سن قوانين أكثر صرامة للتصدي لما سماه (الإسلام الانعزالي) وهذا القانون استغرق تحضيره أشهرا ويهدف حسب واضعيه إلى مواجهة

¹ - <https://www.alquds.co.uk/%D8%B1%D8%A6%D8%A7%D8%B3%D9%>

² - التقرير الثاني عشر لمرصد منظمة التعاون الإسلامي حول الإسلاموفوبيا، يونيو 2018-فبراير 2019، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة مارس 2019، ص 20-21.

التطرف الديني وفرض رقابة مشددة على الجمعيات الإسلامية والمساجد وحماية قيم الجمهورية الفرنسية وقد أطلق عليه مشروع قانون (الانفصال الشعوري).

ثم تعاقبت تصريحات المسؤولين الفرنسيين كوزير التعليم (Jean Michel Blanquer) والداخلية (Gerald Darmanin) وهما من أشد المناصرين لمشروع ماكرون- وكانت جميعها لا تخلو من مفردات مشحونة بالكراهية ضد المسلمين في فرنسا كإطلاق مصطلح (اليسار الإسلامي) و(الإسلام الراديكالي) و(العدو في الداخل) وأن الإسلام يريد الاستحواذ على مستقبلنا و(إقامة نظام مواز) و(إنكار قيم الجمهورية) إلى غير ذلك من الشعارات المثيرة لنزعة الكراهية والإسلاموفوبيا.

ويبدو أن ماكرون أراد من حملته هذه أن يشعر الفرنسيين أنه أكثر جرأة وحزما من الرؤساء السابقين الذين حاولوا وضع طابع فرنسي على الإسلام، ولكنهم فشلوا في ذلك وأنه هو وحده القادر على إصلاح الإسلام وإدماج المسلمين في المجتمع الفرنسي فهو ينظر إلى الإسلام باعتباره ديننا عنيفا وعدوانيا يشجع على الإرهاب وأنه إيديولوجيا سياسية لها أهداف محددة ثم إنه دين منفصل لا يحتوي على قيم يشترك فيها مع الثقافة والحضارة الغربية ومعنى ذلك أن الإسلام في نظره أحط منزلة من الغرب، ولكنه يمثل خطرا عليه¹.

وغرائب ماكرون لا تنتهي، بل الحق نقول نفاقه السياسي ولهفه نحو السلطة، حيث اعتاد التركيز على التخويف من المهاجرين لكسب أصوات أقصى اليمين على عتبة الانتخابات المقبلة، خصوصا بعد تلقيه «صفعة» جديدة في انتخابات الأقاليم إلقاء الضوء على استراتيجيته الهادفة إلى السيطرة المطلقة على المساجد في فرنسا وإخضاعها لسلطة الحكومة، فإلى أين وصلت حملة ماكرون؟

كان العديد من أبناء الجالية العربية والإسلامية في فرنسا، قد منحوا أصواتهم لإيمانويل ماكرون، في الانتخابات التي أوصلته إلى الإليزيه عام 2017، ويذكر أنه كان قد قال أمام حشد من المؤيدين المتحمسين له في باريس، بعد

¹ - سليمان الشواشي. حملة ماكرون على الإسلام والمسلمين في فرنسا حقيقتها، أسبابها، آثارها. أطلع عليه يوم: 2020/4/13.

وقت قصير من فوزه في الجولة الأولى من التصويت في الانتخابات الرئاسية 2017: "أريد أن أكون رئيساً لكل شعب فرنسا، رئيساً لجميع الناس الذين يتعاملون مع تهديد القومية".

غير أنه وبعد أن فاز وأصبح أصغر رئيس في تاريخ فرنسا، فإنه انتهج نهجا مختلفا على مدار العامين الماضيين، إذ طور برنامجا حملته رؤيته لاقتلاع ما أسامه بـ "الزعة الانفصالية الإسلامية"، وغرس القيم الجمهورية، مما أثار غضب الجالية المسلمة في فرنسا، التي اتهمته بانتهاج نهج إقصائي للمسلمين، والسعي لترسيخ "إسلام على طريقته الخاصة".

ويرى كثيرون أن ماكرون وهو سياسي وسطي، قد نحا باتجاه اليمين بصورة كبيرة خلال العامين الماضيين، متبنيا بعض الخطاب اليميني، من أجل الحصول على حصة أكبر من الأصوات، وكان كثير من مسلمي فرنسا قد رأوا في وصفه للإسلام بأنه "دين في أزمة" سعيا للحصول على مكاسب سياسية على حسابهم.¹

ولا أدل على ذلك أنه في الأشهر الأخيرة، واجه نحو 12 مسجداً أوامر بالإغلاق المؤقت لانتهاكها قواعد السلامة أو الحريق، كما استفز ماكرون المسلمين بتصريحاته المعادية للإسلام، على غرار قوله إن "الإسلام في أزمة"، وكذا دعمه للصور المسيئة للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وحل جمعيات المسلمين من بينها "التجمع ضد الإسلاموفوبيا بفرنسا"، المناهض للعنصرية ضد المسلمين.²

وكان تقرير لصحيفة "The Wall Street Journal" الأمريكية قد رصد تركيز الرئيس الفرنسي على ما يسميها معركة "رسم الخط الفاصل بين الدين والدولة" لإجبار "المنظمات الإسلامية على الدخول في قالب العلمانية الفرنسية، وهي الاستراتيجية التي يصفها منتقدو ماكرون بأنه يسعى لفرض "نسخة من الإسلام على الطريقة الفرنسية".³

¹ - فرنسا: لمن سيصوت المهاجرون من العرب والمسلمين في الانتخابات الرئاسية؟ أطلع عليه يوم: 2020/3/12. <https://www.bbc.com/arabic/interactivity-61000186>

² - لماذا أثارت تصريحات ماكرون بشأن "الإسلام" هذا القدر من الغضب بين المسلمين؟ <https://arabicpost.me>

³ - https://www.wsj.com/articles/frances-macron-pushes-controls-on-religion-to-pressure-mosques-11624385471?mod=hp_lead_pos

علاوة على ذلك، مما يؤسف له حقا، أن مشروع القانون سيسمح بالإغلاق المؤقت لأي مجموعة دينية تنشر أفكاراً تحرض على الكراهية أو العنف، وبذلك سيتعين على المنظمات الدينية الحصول على تراخيص حكومية كل خمس سنوات لمواصلة العمل، والحصول على مصادقة سنوياً على حساباتها إذا تلقت تمويلاً أجنبياً، وينطبق مشروع القانون على كل دور العبادة، بما في ذلك الكنائس المسيحية والكُئس اليهودية، لكنَّ تحركات الحكومة مُوجَّهة للمساجد والمنظمات الإسلامية، بحسب الصحيفة الأمريكية.

لذا يحق لنا أن نتساءل عن علمانية الدولة التي تتبجح بها فرنسا، رغم أن العلمانية الفرنسية اعتبرت نفسها محايدة تجاه كل المظاهر الدينية، وميزت نفسها عن الدول الاشتراكية السابقة التي اتخذت موقفاً إلهادياً من الدين، أو دول أخرى انحازت فيها إلى الدين الغالب داخل المجتمع إلا أن هذا لم يمنع أنها كثيراً ما تخلت عن حيادها ودخلت في معارك حول كتاب أو فيلم أو حجاب ومن ثم انغمست في الجدل حول قضايا استثمرت إعلامياً ووضعت مفهوم العلمانية في تحد، فمعركة الحجاب في فرنسا تمثل هزيمة كبيرة لكل الأفكار التي حاولت أن تجدد في العلمانية الفرنسية وتقدم علمانية إنسانية متصالحة مع المجتمع والدين ومع التنوعات الثقافية المختلفة.¹

والجدير بالذكر هنا، أن صورة الإسلام والمسلمين في فرنسا، تختلف عن صورة أتباع غيرهم من الديانات وخاصة اليهود، مع التأكيد على وجوب التمييز المفهومي بين المسلمين الفرنسيين **Musulmans de France** والمسلمون في فرنسا **Musulmans en France**، حيث قامت كثير من الدراسات بالمقارنة بين وضع اليهود والمسلمين المغاربة في فرنسا خاصة وإنهم هاجروا في الفترة التاريخية نفسها تقريباً، وإن كان ذلك لدوافع وغايات مختلفة، وتبين أن وضع المسلمين يختلف اختلافاً جذرياً عن وضع اليهود سواء الاقتصادي منه أو العلمي أو الثقافي أو الاجتماعي أو حتى السياسي، وتبين أيضاً أن قضايا الهوية والخصوصية والاندماج الاجتماعي والسياسي والفكري في الأنظمة المسيرة للواقع الفرنسي تختلف اختلافاً جذرياً بين اليهود والمسلمين في فرنسا.²

¹ - بومدين طاشمة، ظاهرة الإسلاموفوبيا في أوروبا: دراسة لخصوصية وضع المسلمين في فرنسا جامعة تلمسان - الجزائر، ص: 160. <https://arabicpost.me>

² - نقلا عن صورة الآخر، مرجع سابق، ص 261، وينظر مثلاً مقال مارتين كوهين اليهود والمسلمين في فرنسا: المنوال الجمهوري والاندماج ص 89-

وختاماً نقول لا ينبغي الاستخفاف بهذه الظاهرة ذات الآثار الخطيرة، ليس على الجاليات الإسلامية في فرنسا وحسب؛ بل وعلى النظرة إلى الإسلام والعرب بشكل عام، فمما له دلالاته أن ظاهرة الإسلاموفوبيا في تزايد واستهداف المسلمين والتشجيع على الإقصاء والتمييز أخذت أشكالاً عدة، وهذا ما أكدته الدكتورة حسن أوريد في مقابلة مع "عربي" من أنّ "الإسلاموفوبيا تتخذ أشكالاً عدّة، من أهمّها التمايز الاجتماعي، أي غياب علاقات اجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين في أوروبا، فالمسلمون يعيشون في أحياء هامشية، ويعانون من إجراءات صارمة من حيث الإدارة أو الحصول على الشغل أو غيرها... مما قد ينتج عنه تطرف قسم من الشباب واعتناقهم للأفكار المتشددة.

كما أن صعود الإسلاموفوبيا يساهم بشكل كبير في صعود التيارات الشعبوية وسياسات مناهضة السياسة في القارة الأوروبية، وخير دليل على ذلك النجاحات الانتخابية المبهرة للأحزاب السياسية اليمينية المتطرفة التي قد تجبر العديد من الأحزاب السياسية الرئيسية على تبني ذلك الخطاب المعادي للمسلمين، زد على هذا أن الإسلاموفوبيا لا تمثل تهديداً للمسلمين فحسب، بل تشكل تهديداً لمبادئ العدالة والمساواة والحرية نفسها، تماماً بقدر ما تمثل تهديداً للأمن والوثام الاجتماعي.

بل أكثر من ذلك أنها تدوس على إنجازات احتاجت البشرية لتحقيقها قروناً عدة، فضلاً على أنها تضرب عرض الحائط المساعي البشرية والتضحية التي نشأت على أساسها مؤسسات دولية لضمان الحفاظ على الإنجازات البشرية، ليبقى تحدى السيطرة على إشكالية الإسلاموفوبيا في العالم، قائماً من خلال سن تشريعات وقوانين واضحة تدعم مكافحة التمييز بحق المسلمين وتجرم خطاب اليمين المتطرف العدائي ضدهم.

قائمة المراجع:

- عبد الحسين شعبان، فقه التسامح في الفكر العربي- الإسلامي، الثقافة والدولة، الطبعة الثانية، 2011، دار أراس للطباعة والنشر، أربيل، كردستان العراق.
- عماري مصطفى، إشكالية التسامح في الفكر الغربي والفكر العربي: محاولة في التركيب، مجلة البدر المجلد 10، سنة 2018، جامعة بشار.

- عبد الله محمد علي الفلاحي، التسامح وأبعاده الحضارية في الفلسفة الغربية، قراءة نقدية لإشكالية العلاقة بين النظرية والممارسة، مجلة الاستغراب، العدد 22، 2021.
- مجموعة من المؤلفين، التسامح ليس منة أوهبة، ط: الأولى، دار الهادي، لبنان، 2006.
- منير الكشو، مفهوم التسامح: صعوبة التعريف وتحولات الواقع، قسم الدراسات الدينية، 21 يناير 2019، مجلة مؤمنون بلا حدود.
- عبد الله بن صالح القحطاني، التسامح كمتغير بالإقبال على الحياة والاندماج الاجتماعي لدي عينتين من المراهقين المعاقين بصريا والمعاقين سمعيا، جامعة شقراء، العدد 24، سبتمبر 2017، مجلة علوم الانسان والمجتمع.
- عاطف علي، إشكالية التسامح، مجلة التسامح، العدد الثامن عشر، (2007م).
- ريا قحطان الحمدان، الإسلاموفوبيا جماعات الضغط الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية، طبعة الأولى 2011، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- الدراجي زروخي، خرافة الإسلاموفوبيا، طبعة الأولى مارس 2021، منشورات مخبر الدراسات الأنثروبولوجية والمشكلات الاجتماعية، جامعة محمد بوضياف - المسيلة.
- مؤلف جماعي، الإسلاموفوبيا في أوروبا: الخطاب والممارسة، الإصدار الأول (2019)، الطبعة الأولى، المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية، برلين-ألمانيا.
- نعيمة كروالي، فرنسا من ثورة الجياح إلى لعبة الأمم، الطبعة الأولى أكتوبر 2020، المركز الديمقراطي العربي، برلين - ألمانيا.
- مارلين نصر، صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، الطبعة الأولى يناير 1995، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان.
- عبد الكريم بوفرة، من قضايا الإسلام والإعلام في الغرب، طبعة الأولى يناير 2008، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.
- بومدين طاشمة، ظاهرة الإسلاموفوبيا في أوروبا: دراسة لخصوصية وضع المسلمين في فرنسا جامعة تلمسان - الجزائر.

- عبد الرحمان بن معلا اللويح، توظيف المصطلح في الصراع الحضاري (مصطلح الإرهاب أنموذجا) مجلة جامعة الإمام (العدد 44) شوال 1424.
- التقرير الثاني عشر لمركز منظمة التعاون الإسلامي حول الإسلاموفوبيا، يونيو 2018-فبراير 2019، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة مارس، 2019.
- المواقع الالكترونية:
- <https://www.trtarabi.com/explainers/>
- <https://www.aa.com.tr/ar/> -2022-03-11: أطلع عليه يوم ،
- سناء الخوري، المسلمون في فرنسا: كراهية ممنهجة أم سوء فهم؟ BBC News - عربي، <https://www.bbc.com/arabi>. أطلع عليه يوم: 2022-03-11
- <https://www.middleeasteye.net/news/france-macron-accused-powers-systematically-persecute-muslims>
- رئاسيات فرنسا.. تنافس على "الأكثر عداء" للمسلمين والمهاجرين، أطلع عليه يوم: <https://www.aa.com.tr/ar.2022/05/11>
- حملة ماكرون على الإسلام والمسلمين في فرنسا حقيقتها، أسبابها، آثارها، الدكتور سليمان الشواشي، <https://www.kurdiu.org/ar/b/502160>. أطلع عليه يوم: 2022/05/15.
- فرنسا: لمن سيصوت المهاجرون من العرب والمسلمين في الانتخابات الرئاسية؟ أطلع عليه يوم: <https://www.bbc.com/arabic/interactivity.2022/05/22>
- لماذا أثارت تصريحات ماكرون بشأن "الإسلام" هذا القدر من الغضب بين المسلمين؟ عربي بوست، أطلع عليه يوم: <https://arabicpost.me.2022/05/30>.
- <https://www.wsj.com/articles/frances-macron-pushes-controls-on-religion-to-pressure-mosques->

The Impacts of Misleading Media: A brief Survey of Television disinformation

آثار وسائل الإعلام المُضَلِّلة: لمحة موجزة عن التضليل التلفزيوني

Dr. Hamza Ait El Housseine, Cadi Ayyad University, Marrakech , Morocco

د. حمزة أيت الحسين/جامعة القاضي عياض، المغرب

ملخص:

يعرف العالم طفرة نوعية لا ينكر سرعتها الفائقة والخطيرة إلا جاحد، وهذه الطفرة تتمثل في التحدي التكنولوجي والتطور المتسارع للثورة المعرفية والمعلوماتية؛ وقد كتب الكثير عن منتجات الوسائط ووسائل الإعلام، باعتبارها تشمل مجموعة كبيرة ومتنوعة جداً من التقنيات، التي يمكن أن يصل تأثيرها إلى ملايين الأشخاص في وقت قليل جداً، عبر جميع وسائل الاتصال والتواصل المعروفة في زمننا الحاضر؛ والتي تشمل أيضاً مجموعة متنوعة من المنافذ الشديدة التفرع؛ بشكل أصبحت معه تشكل حياة افتراضية تحيط بالحياة الواقعية، بل تجاوزت ذلك لتصبح واقعا من نوع آخر. هذا الدور المهم للغاية، يمكن في كثير من الأحيان أن يجعل هذه الوسائط، التي يمكن نعتها بـ"الجماهيرية" ملامستها لشرائح مجتمعية واسعة جداً، تنقلب ضد الإرادة الحقيقية للمستهلكين/المستفيدين منها؛ بشكل لا يمكن معه لهؤلاء التعرف على التغييرات- وأحياناً تكون خطيرة- التي تقوم بها هذه المنتجات على سلوكياتهم وحياتهم الشخصية، لذا في الصفحات التالية سأحاول بإيجاز تحديد الإواليات والميكانيزمات الكامنة وراء هذه الإرادة في تغيير الجمهور المستفيد، وبعض أوجه "الثورة الميديولوجية" كما نعتها بذلك ريجيس دوبري¹، من خلال استغلال استهلاكها لخاصة منتجات هذه الوسائط، مما يعني إخضاعه للتغيير بطريقة ممنهجة لطيفة ويسيرة، وسيتم التركيز في ذلك على مثال المنتج التلفزيوني، من خلال الوقوف على أهم مناحي وظيفة التضليل فيه، ضمن سياق استحضار السعي الدائم لاستمالة المستهلك/المتابع وتخدير وعيه بشكل مكثف.

الكلمات المفتاحية: وسائل الإعلام، الثورة المعلوماتية، التضليل التلفزيوني، تغيير السلوك.

¹- عالمي سعاد؛ مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري، منشورات إفريقيا الشرق، بيروت لبنان، 2014، ص 13.

Abstract:

Much has been said about Media products and Mass Media, which refers to a very large and diverse array of technologies that can reach Millions of people in a very short time via all the known mass communication, which include as well a variety of outlets branches. This very important position can make those mass Media turn against the real will of consumers/beneficiaries in a certain way that these latest couldn't be able to recognize the changes, and sometimes dangerous ones, that these products are making on their behavior and personal life. So in the following pages I will try to define the mechanisms behind this will of changing audience by its own consuming of Media products, which means subduing him to change in a soft and kindly way. This will focus on the example of the TV product, by examining the most important aspects of the misinformation function in it, within the context of evoking the constant quest to win over the consumer/follower, and intensely anesthetize its consciousness.

Key Word: Media products, Mass Media, Misleading, Communication, Television.

Introduction

The socio-historical sources about the history of intellectual production that related to the elements of the authority/elite's relationship with the rest of society, over the course of historical eras, confirms without any doubt a dual view of this relationship. One aspect of this view on the one hand is what can be called "**the desired knowledge**" and on the other hand there is this which is called "**the undesirable knowledge**", both of them are subject to the vertical view of the political authority, through the gate of disinformation in all its forms and means.

In this short analysis, I have tried to identify the most important aspects of how television is misleading in relation to the impacts on the consumers mentality, in the context of evoking the relationship of political authority with the rest of society, especially the "disturbing" educated elite, and constantly seeking to seduce and anesthetize its consciousness intensively.

1_ The misleading function

The greatest triumph of media misleading is to take advantage of the historical circumstances of western evolution by enshrining a specific concept of freedom formulated in individualistic terms. This can be understood from the performance of a dual function either from the protection of individual property, or on the other hand the emergence of the myth of concern for individual well-being; and in this direction is building a complete structure of media disinformation. In order for this disinformation to play its role effectively, **"the evidence of its existence must be hidden"**¹, that is, the misleading is successful when the misguided feel that the things around them are ordinary and in their normal nature, **"that is, the constant denial of its existence"**².

The media works to achieve this goal (misleading) by offering it to the masses full of values and standards, whether in realistic or fictional images, or in images with mixed reality and imagination. All of this has a strong influence on the values of individuals as well as on their attitudes and ideas. **"It has become recognized that a nation, any nation, cannot live without giving the media issue and its means the attention it deserves"**³. This interest in both

¹ _ Herbert Schiller; **The Mind Managers**, How the great Drivers of Puppies in Politics, Publicity and Mass Communication Attract Public Opinion, Translated by Abdel Salam Radwan, Alam Al Maàrifa magazine, N° 106, p 16. (in Arabic).

² _ Ibid, p 16.

³ _ Mohamed Abdel-Ali Morsi; **The Muslim Child Among the Benefits and Adversities of TV**, Obeikan Library, First Edition, 1997, p. 87, (in Arabic).

dimensions, whether thinking about the danger that the media holds, or in a second dimension, due to occupying the daily hours by following the programs.

“In their passion to dominate, to mold others to their patterns and their way of life, the invaders desire to know how those they have invaded apprehend reality –only to dominate them more effectively”¹.

Misinformation is a form of subjugation of the masses smoothly; it is symbolic violence practiced on individuals on many occasions. Saying that entertainment, for example, does not carry any misleading trait is "**one of the biggest tricks of history**"². Entertainment in itself carries the features of misinformation or the displacement of the recipient to the realms of imagination and escape from reality despite the myth that entertainment and enjoying are independent of value and are found outside the social process.

In fact, the media system benefits from the use of all forms familiar to popular culture, comic books, cartoons, movies and series, sports events...etc. To put the watchers on the media field a variety of entertainment and value-loaded entertainment, such as a cultural industry that denies the existence of its time and effect in the process of individuals escaping from reality and the state of flaccidity. In this regard, we can only agree with Anthony Giddens as he has stated that, "**The media does not provide us with the means for recreation, but rather contributes to shaping the kind of information that we receive and act upon in our lives**"³.

¹ _ Paulo Freire, **Pedagogy of the Oppressed**, 1971.

² _ Herbert Schiller; **The Mind Managers**..., op cit, p 96.

³ _ Anthony Giddens; **Sociology**, translated by Fayez Al-Sayaa, Arab Organization for Translation, First Edition, Beirut, October 2005, p. 532. (in Arabic).

It is an explicit statement that describes the great effect that the media product has, through the ramifications of its types, on the mentality of individuals, and the mechanisms of dependency and guidance that they create in themselves.

New discoveries in the fields of digital culture, optical fibers and satellite systems have combined to integrate information and facilitate its transfer through multimedia that brings together several forms of communication in one medium. The interactive medium in which the individual plays a prominent position, whether in the process of its absorption and introspection of the contents of the media product, or its extraction as a behavioral pattern that includes eating, dressing, talking, etc., as an active participation with what he sees and hears in the media around the clock.

Several theories have been put forward about the mass media, and they differed in the degree and manner of influence, but it is recognized that the influence is there, despite the dispute between the "disaffected" and the "cheerleaders"; That argument summed up by the Italian semiotics scholar **Umberto Eco** in his book *Disaffected and Cheered*. The disagreement that separates opponents of the popular culture from its supporters, each according to his desire, direction and interest, "the disaffected" are those who see in this new phenomenon a crisis of culture and democracy. As for the "cheerleaders", they have another opinion, they are the ones who rejoice and gloat in the democracy of the entertainment culture so that it became accessible to millions¹.

¹ _ Arman and Michel Matlar; **A History of Communication Theories**, translated by Nasreddin Al-Ayyad, The Arab Organization for Translation, Third Edition, pp. 95.96. (in Arabic).

Perhaps the controversial and intense debate surrounding technology focuses on this regard.

The Herbert Marcuse's criticism of Max Weber on rationality reinforces the argument of misinformation and oppression:

112

"Perhaps the concept of the technical mind itself is an ideology and not the use of technology is a start, but the technology itself is a domination of nature and man"¹. Moreover, considering mass media as technical tools, but rather high-tech, that reached its climax with the internet and various smart devices, which suggests this control that moves from the level of information and its control, according to the directions of those sitting behind "cameras" and "microphones" to a control that affects awareness and individual behavior As - the individual - is the consumer and the person in need of the information products, **"it is a systematic, scientific and calculated control"**² that leads to misinformation that hides the evidence of its existence, and denies this by myths of neutrality and free personal choices.

Among the theories put forth on mass media is the opinion that "Daines" and "Mac Luhan" provided. Media influences the society through "how" and the way in which the media is conveyed, not with the content of the communication itself.

In the words of "McLuhan", the medium is the message. Television for example affects the behavior of people and their attitudes because it is different in nature from other means such as newspapers and books, because the synchronization of the working sense of hearing and sight at the same time makes it easier to perceive the message and interact with it emotionally. Simply to

¹ _ Jürgen Habermas; **Science and technology as an ideology**, translated by Hassan Saqr, Al-Jamal Publications, I 1, 2003, p. 44. 45. (in Arabic).

² _ Ibid, P 45.

be bid farewell to the relatively old (newspaper books), and the new computer, phone, and digital thin screens are welcomed, which transport the individual to the heart of the event; it is the thing that brings us to the first phone call in the history of mankind made by "ALEXANDER GRAHAM BELL" with his assistant, "Watson", his voice was carried by copper wires¹.

So the voice was transmitted until we got to cellular phones, we bid farewell to copper wire, and we opened up to cell phones that move with their owners in all places and times, to other developments that are very accurate and effective. It is the same thing that happened in the world of television, which was confined to the affluent classes, with a quality that cannot be compared to what it has now reached in any way to the point that almost every family now has more than one television set. This technical and technological breakthrough cannot be devoid of the **mechanisms of penetration into the depths of individuals** in order to attract their attention, suspense and place them in different psychological states according to the content of the recreational material. It is the forces that constantly seek to push the lives of individuals into the age of info-media² (the era of the succession of technology and its development to the point where the individual is alienated in himself and deprived of his reality).

Generally, we can link misinformation, on this level, with a kind of effect, considering that the influence, in the broad meaning of the word, can be defined as any form of the act by element (A) that represents the influencer exercised on (B) affected.

¹ _ Frank Kelch; **The revolution in information, informational media and how it changed our world and your life**, translated by Hossam El-Din Zakaria, review by Abd al-Salam Radwan, The World of Knowledge, No. 253, January 2000, p. 205. (in Arabic).

² _ Ibid, P 512.

The effect belongs to the category of authority relations, and (A) has an influence as if it has authority, but this influence is distinguished from authority by the type of the substances it uses; Influencing a person does not mean coercing him by presenting or showing the strength that we can mobilize against him, in order to surrender, but rather pushing the affected person kindly to see things with the same viewpoint of the influencer, We can then consider the effect as a very special form of authority, Which is based on persuasion as its main source¹.

From this standpoint, the television image has played a major role as a weapon of conquest and influence over groups, individuals and societies in parallel with the lack of deep scientific research that tackles it at the level of analysis and tracking. Therefore, this weapon has been moving frequently between the apparent appearance and the secret concealment.

The television image has imposed its authority over many generations on different nationalities, traditions and customs, and confined them all within the angle of its influence, relying on the cosmic slogan that globalization entrenches in all its forms and types, so that the image discourse has reached all corners of the world.

From the foregoing, we conclude that the image is considered a form of thought, with all its authority over the recipient, who benefits from its components and contents; therefore, it is necessary to focus on knowing the elements of its strength, as it targets a person through his/her various social and psychological states.

It is necessary to take care of the quality of the consumed image that it is never characterized by objectivity, but imposes on the consumer its content and directs it according to the desire of

¹ _ Pudon and P, Porico; *A Critical Lexicon of Sociology*, translated by Salim Haddad, Edition 1, 1986, p. 116.

those who produced it, and here the goal of capturing and besieging is achieved so that enjoyment of watching is merely a clear path leading to a hidden world, a hidden world in which the type and proportion of the change to be applied to the consumer is determined.

So, the one who produced the image not only controls it, but also controls all types of consumers, At the times when modern technology facilitates this, and provides many very advanced means which help him to do the job, and the situation becomes more complicated when the consumer's age decreases. This, as result, leads another reality which is: the reality of socialization within the revolution of information and communication technology.

Among the precise characteristics of the image: its ability to perform silent or symbolic transmission, making the consumer enter into a form of symbolic correspondence that produces a relationship between multiple mechanisms because a person can receive and send many pictures in a short time, and thus the large number of received and transmitted effects, in a way that makes the preventive analysis of human consciousness weakening in front of the large and varied TV content, which means spamming unwanted content into the individual and collective unconscious, according to the language of the image, and the desired effects and changes.

In this sense, the image carries endless questions that go beyond the issue of informing, enjoyment and entertainment to a deeper reality in which fundamental changes occur and hinder all sorts of communication that ordinary based on positive communication, to directed communication whose goals are related to people sitting behind image production techniques, supported by deep scientific strategies aimed at guiding collective thinking.

Finally, it was pointed out that dealing with the media, and all the products that emanate from it, should be subject to rational and logical analysis, because the products they provide are not all in order and positive, but rather have many negatives, and are supported by intellectual and ideological backgrounds, which the consumer cannot recognize if he is not aware of what he was watching, and the type of the channels he/ she follows.

This leads to another type of questions like: "how we can measure the effect of the image?" while we know that each type of image carries characteristics and features that make it different from the other types. The still image gives us the freedom to examine it and look carefully at its content, while the screen differs from it, as it accelerates its work with force that does not allow the viewer / recipient to examine, accept or reject, it is a continuous flow that does not stop.

2- Recommendations

The following paragraphs will be focused on the hidden side of television, because, as I see it, is so much easy to loose the sight of the real fact that this tool actually created in our world.

No one can deny that Aside of giving many information, programs and benefits to the audiences, TV has played many positive rolls, but most of them are, in a meaningful and systemic way, changing the world, changing us all over the world, gradually and slight, because it has a flipsides that are hidden.

One of those sides is **fake news**, this could be one of the most popular words that people repeated while dealing with Media, especially with TV, but do they really know what exactly this means? Most of them don't!

No one can deny that TV's product is full of Fake on many levels, fake Stories, fake Work Arts, fake Tickets, fake Images and fake Documents, each one of these levels is based on a strategic roll called "fake it till you make it" which leads to a hidden desire of achieving certain producers' aims, is hard to tell how to how to choose, or find out what is fake from what is real, but all I can tell is that this misleading is more than just a fake, because it results many mental and cultural changes, TV has moved from the information age to the disinformation age, in which who control it decides how the fabric of our societies will work.

Here is an example of this, from "learn English British council" web site¹:

"In December 2016 Edgar M. Welch drove six hours from his home to Washington DC, where he opened fire in a pizzeria with an assault rifle. He had previously read an online news story about the restaurant being the headquarters of a group of child abusers run by Hillary Clinton. He decided to investigate for himself; fortunately, no one was hurt.

The story about Hillary Clinton is one of the most famous examples of the growing phenomenon dubbed 'fake news'. The conspiracy theory about the pizzeria began to appear on websites TV and social networks in late October, before the US election. This was quickly denounced by publications such as The New York Times and The Washington Post. However, many people thought that these papers were themselves lying for political ends and instead of disappearing, the fake story snowballed. Tweets from 'Representative Steven Smith of the 15th District of Georgia' claimed that the mainstream media were telling falsehoods. Even though both

¹ _you can check it here : <https://learnenglishteens.britishcouncil.org/skills/reading/advanced-c1-reading/rise-fake-news>.

this name and district were invented, the message was re-tweeted many times. A YouTube refutation of the New York Times article got 250,000 hits.

Fake news stories can be hard to control for several reasons. Many people mistrust established news sources and others just don't read them, so the debunking of a fake story by a serious newspaper or TV channel has limited effect. In addition, the internet is very hard to police. When users are caught misusing one media platform, they simply go to another one or start up a website themselves.

There are also various reasons why people create fake news. Some have political motives, to belittle or incriminate their opponents. Other websites, like The Onion, deliberately publish fake news as satire – humorous comment on society and current affairs. Another group is in it for the profit: many people clicking on entertaining fake news stories can bring in a lot of advertising revenue. One man running fake news sites from Los Angeles said he was making up to US\$ 30,000 a month in this way. There are also those, like the small-town teenagers in Macedonia who wrote fake news stories about Donald Trump, who seem to be motivated partly by money and partly by boredom”.

After all of this results we to the most important question, **what can we do to stop fake news spreading?**

First, make sure that the websites you read and TV you watch are legitimate, for example by looking carefully at the domain name and the About Us section. Check the sources of any quotes or figures given in the story. And for tv compare between many channels, remember that amazing stories about famous people will be covered by the mainstream media if they are true. Only share

stories and news you know are true and let your friends and family know, tactfully, when they unknowingly share fake news. Together we can turn around the post-truth world, and protect all of us from its damage, and especially the new generation that was born in the age of these Media.

Conclusion

After this brief overview of television disinformation, it must be emphasized that dealing with the media must be accompanied by constant caution, as not everything that is said is true and not everything that is transmitted is positive and fit for consumption, just as the human body feeds on good food to build a strong body, it must consume good information from real media for a strong mind that thinks independently.

List of sources and references

1. Anthony Giddens; **Sociology**, translated by Fayez Al-Sayaa, Arab Organization for Translation, First Edition, Beirut, October 2005, (in Arabic).
2. Arman and Michel Matlar; **A History of Communication Theories**, translated by Nasreddin Al-Ayyad, The Arab Organization for Translation, Third Edition, (in Arabic).
3. Frank Kelch; **The revolution in information, informational media and how it changed our world and your life**, translated by Hossam El-Din Zakaria, review by Abd al-Salam Radwan, The World of Knowledge, No. 253, January 2000, (in Arabic).
4. Herbert Schiller; **The Mind Managers**, How the great Drivers of Puppies in Politics, Publicity and Mass Communication Attract Public Opinion, Translated by Abdel Salam Radwan, Alam Al Maàrifa magazine, N° 106, (in Arabic).

5. Jürgen Habermas; **Science and technology as an ideology**, translated by Hassan Saqr, Al-Jamal Publications, I 1, 2003, (in Arabic).
6. Mohamed Abdel-Ali Morsi; **The Muslim Child Among the Benefits and Adversities of TV**, Obeikan Library, First Edition, 1997, (in Arabic).
7. Paulo Freire, **Pedagogy of the Oppressed**, 1971.
8. Pudon and P, Porico; **A Critical Lexicon of Sociology**, translated by Salim Haddad, Edition 1, 1986.
9. <https://learnenglishteens.britishcouncil.org/skills/reading/advanced-c1-reading/rise-fake-news>.



DOI Prefix:10.33685/1316

جميع الحقوق محفوظة © لمركز جيل البحث العلمي